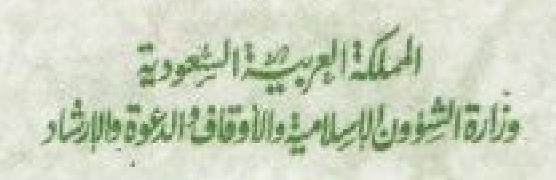






من سيرة البشير النذير صلى الله عليه وسلم

د/ يحيى بن ابراهيم اليحيى



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اليحيى ، يحيى بن ابراهيم

نفحة عبير من سيرة البشير النذير . / يحيى بن ابراهيم اليحيى.-

الرياض، ١٤٢٧ هـ

١١٢ ص ؛ ٢١ سم

ردمك : ١ - ٥٥٩ - ٢٩ - ٩٩٦٠

١ - السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٢٧/٥١١٩

رقم الإيداع : ٥١١٩ / ١٤٢٧

ردمك : ١ - ٥٥٩ - ٢٩ - ٩٩٦٠

الطبعة الثانية

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

المقدمة

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على من بعث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن استن بسنته واهتدى بهديه واقتفى أثره وسار على نهجه إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن رسول اللّه ﷺ هو الصورة العملية التطبيقية لهذا الدين، وجميع الطرق الموصلة إلى اللّه تعالى ثم إلى الجنة موصودة ومغلقة إلا طريقه ﷺ ، ويمتنع أن تعرف دين الإسلام ويصح لك إسلامك بدون معرفة الرسول ﷺ ، وكيف كان هديه وعمله وأمره ونهيه ومنهجه وسنته؟

لقد سالم وحارب، وأقام وسافر، وباع واشترى، وأخذ وأعطى، وما عاش ﷺ وحده، ولا غاب عن الناس يوماً واحداً، ولا سافر وحده.

وقد لاقى صنوف الأذى، وقاسى أشد أنواع الظلم، وكانت العاقبة والنصر له.

بعث على فترة من الرسل، وضلال من البشر، وانحراف في الفطر، وواجه ركاماً هائلاً من الضلال والانحراف والبعد عن اللّه، والإغراق في الوثنية.

فاستطاع بعون اللَّه أن يخرجهم من الظلام إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى ومن الشقاء إلى السعادة، فأحبوه وَفَدَوْهُ بأنفسهم وأهليهم وأموالهم، واقتدوا به في كل صغيرة وكبيرة، وجعلوه نبراساً لهم يستضيئون بنوره، ويهتدون بهديه فأصبحوا أئمة الهدى وقادة البشرية.

هل تطلبون من المختار معجزة يكفيه شعب من الأجداث أحياه
من وحد العرب حتى كان واترهم إذا رأى ولد الموتور أخاه

وما أصيب المسلمون إلا بسبب الإخلال بجانب الاقتداء به، والأخذ بهديه، واتباع سنته، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾.

حتى اكتفى بعض المسلمين من سيرته بقراءتها في المنتديات والاحتفالات، ولا يتجاوز ذلك إلى موضع الاهتداء والتطبيق....

وبعضهم بقراءتها للبركة، أو للاطلاع على أحداثها ووقائعها، أو حفظ غزواته وأيامه وبعوثه وسراياه.

وهذا راجع إما لجهلٍ بأصل مبدأ الاتباع والاهتداء والاقتداء، وعدم الإدراك بأن هذا من لوازم المحبة له ﷺ، وإما لعدم إدراك مواضع الاقتداء من سيرته ﷺ؛ نظراً لضعف المَلَكَةِ في الاستنباط، أو لقلة العلم والاطلاع على كتب أهل العلم.

إن سيرته ﷺ رسمت المنهج الصحيح الآمن في دعوة الناس، وهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة. وما فشلت كثير من المناهج الدعوية المعاصرة في إصلاح البشر إلى بسبب الإخلال بهديه والتقصير في معرفة سنته، ونقص في دراسة منهجه ﷺ في هداية البشر وإصلاحهم[1].

لذا رأيت كتابة هذه التعليقة من سيرته ﷺ كنموذج مقترح لكتابة السيرة النبوية؛ لكي تكون لبنة في بناء المنهج الدعوي القائم على هدي النبي ﷺ، وأسأل الله تعالى أن ينفع بها كاتبها وقارئها ومستمعها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآمل من كل أخ عنده اقتراح أو ملاحظة أو تنبيه أن يكتب لي على العنوان التالي:

المدينة المنورة ص. ب. ١٠٢٢٧

أو عبر البريد الإلكتروني:

yahya@aldar.org

أو:

yy@ayna.com

(١) انظر : مدخل لفهم السيرة للمؤلف.

إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة

وبعد: أخي الكريم إنه حري بك وأنت تتجه كل يوم في صلاتك إلى هذا البيت المحرم أن تتعرف على تاريخه، ولا أظنك إلا من النهمين الحريصين على تعلم ذلك؛ وبخاصة أن هذا البيت خير مكان على الأرض منه شع نور الإسلام، وبعث فيه خير الأنام سيدنا وقائدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

إن قصة بناء الكعبة قصة عظيمة، تتضح فيها عظمته وأهميته، فقد احتاج أبو الأنبياء وخليل الرحمن أن يضع أسرته هناك حيث لا أنيس ولا جليس من أجل هذا البيت.

قال البخاري في صحيحه: قَالَ ابْنُ عَبَّاس: جَاءَ إِبْرَاهِيمُ بهاجر وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْس بهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ.

ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ: أَ اللَّه الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟

قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ.

فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿**رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿**يَشْكُرُونَ**﴾.

وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ - فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنسان الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِيَ ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا.

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا

وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : يَرْحَمُ اللَّه أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا.

قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّه يَبْنِي هَذَا الْغُلامُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللَّه لا يُضِيعُ أَهْلَهُ.

وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ.

فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الأُنْسَ فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ

وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ.

وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تزوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فَشَكَتْ إِلَيْهِ قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلامَ وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلامَ وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّه ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّه، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: الْمَاءُ، قَالَ: اللَّهمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ، قَالَ: فَهُمَا لا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلا لَمْ يُوَافِقَاهُ،

قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ فَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ.

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿ **رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[1].

---

(١) رواه البخاري ح ٣٣٦٤.

أخي الحبيب: إن في هذه القصة فوائد عظيمة منها:

١- التسليم المطلق للّه تعالى، فإبراهيم يدع امرأته وطفلها في أرض موحشة غريبة قفراء لا ماء فيها ولا شجر استجابة وطاعة للّه تعالى، مع ما عرف عنه من الشفقة والرحمة، ولكن التسليم لأمر اللّه تعالى فوق كل شيء.

٢- امتحان الأنبياء بأولادهم وهل يقدمونهم فداء لطاعة ربهم أم لا؟.

٣- أن البلاء والمحن التي تنزل بالمسلم لا تعني أن اللّه تعالى تخلى عنه، أو أراد تعذيبه بل إنه ربه أرحم به من نفسه، ولكن النفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث، وتصلح من نفس المبتلى وقلبه، ويستعلي به على الشح بالنفس والمال، ويخرج أفضل ما عنده من مزايا وطاقات، ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وهذا خليل اللّه وأبو الأنبياء عليهم السلام تتوالى عليه المحن والفتن فيخرج منها نقياً تقياً، صابراً محتسباً، مسلما أمره للّه جل وعلا، حتى أصبح أمة بنفسه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ كَانَ أُمَّةً ﴾.

٤- تربية إبراهيم أسرته على الطاعة والتسليم الكامل لأمر اللّه عز وجل.

٥- قوة إيمان هاجر وعظم توكلها وثقتها بربها عز وجل: « إذن لا يضيعنا ».

٦- التوجه إلى اللّه وحده بالدعاء والتضرع في كل حال، فإبراهيم عليه السلام لما نفذ أمر ربه بوضع أسرته في ذلك الموقع الموحش، توجه إلى اللّه بالدعاء لهم بالأنس والرزق والبركة، ومن توكل على اللّه كفاه، ومن ركن إليه آواه، ومن سأله وتضرع إليه أعطاه.

٧- إن اللّه سبحانه وتعالى لا يضيع من توكل عليه وحده وسلم الأمر إليه، مهما ادلهمت الخطوب واشتدت الكروب، فإنه لا يأس من روح اللّه ورحمته.

فهذه أم إسماعيل لما انتهى طعامها وماؤها أرسل اللّه إليها غوثاً من عنده، وأجرى لها الماء بأمره جل وعلا.

٨- من أقبل على اللّه تعالى والتزم أمره وتوجه إليه بالعبادة دون سواه، رفع اللّه ذكره في العالمين، انظر رحمك اللّه كيف بقيت ذكرى أم إسماعيل في السعي إلى يومنا هذا.

٩- من كان همه الدنيا والتمتع فيها فلا يصلح أن يجاور نبيا من أنبياء اللّه تعالى أهل العبادة والصلاح والعمل والهمة العلية، ولهذا أمر إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل أن يطلق تلك المرأة التي شكت إليه شدة العيش.

الحكمة من بناء البيت

وأنت تدرك معي أخي الكريم السر الذي من أجله بني هذا البيت، إنه من أجل توحيد الله ونبذ الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والقائمينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۞ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾.

قال ابن كثير في تفسيره:

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي أرشده إليه وسلمه له وأذن له في بنائه، ﴿ **أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً** ﴾ أي ابْنِه على اسمي وحدي ﴿ **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ** ﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك ﴿ **لِلطَّائِفِيْنَ وَالقَائِمِيْنَ وَالرُّكَّعِ السُّجُوْدِ** ﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿**وَالقَائِمِيْنَ**﴾ أي في الصلاة، ولهذا قال: ﴿**وَالرُّكَّعِ السُّجُوْدِ**﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده والصلاة إليه.

وقال القرطبي في تفسيره: ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ﴾ هي مخاطبة لإبراهيم عليه السلام في قول الجمهور. وقرأ عكرمة « أن لا يُشْرِك » بالياء، بمعنى لئلا يشرك.

وفي الآية طعن على من أشرك من قُطّان البيت أي هذا كان الشرط على أبيكم فمَن بعده وأنتم، فلم تَفُوا بل أشركتم.

وأمر بتطهير البيت والأذان بالحج. والجمهور على أن ذلك لإبراهيم وهوا لأصح. وتطهير البيت عام في الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء.

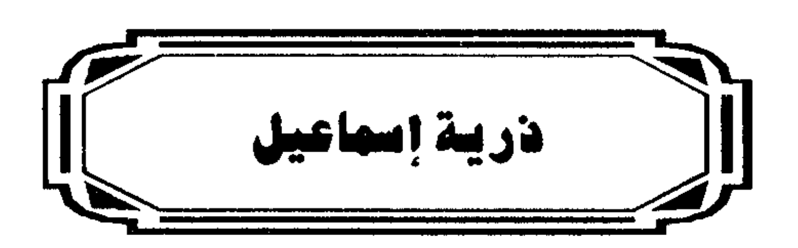
وقيل: المعنى نزّه بيتي عن أن يعبد فيه صنم. وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه. والقائمون هم المصلون. وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها، وهو القيام والركوع والسجود.

فللتوحيد بني هذا البيت ومن أجل التوحيد عمر، ولأهل التوحيد وحدهم شيد، ومن أجلهم طهر البيت من الشرك والبدع والخرافات، وهؤلاء الطائفون والركع السجود هم الذين من أجلهم أقيم هذا البيت لا لأولئك الذين يشركون بالله تعالى، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه.

وينبغي على المسلم أن لا يتكل على عمله مهما كان صحيحا صوابا، فإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يأمرهما الله جل وعلا ببناء

بيته المحرم من أجل توحيده، فيقومان بذلك خير قيام ومع ذلك لم يتكلا على عملهما بل يسألان الله تعالى دائما قبول العمل ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيْمُ القَوَاعِدَ مِنْ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيْلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ** ﴾ فليس صواب العمل كاف في القبول، بل لا بد أن يصاحبه الإخلاص لله تعالى الخالص من شوائب الشرك، وحظوظ النفس.

وكان عليه الصلاة والسلام وهو الموحد أبو الموحدين يخشى من الشرك فيقول: ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ فهل أحد بعد إبراهيم عليه السلام لا يخاف على نفسه من الوقوع في الشرك!! لهذا ينبغي على كل مسلم أن يكون دائما يقظا منتبها لنفسه من هذا الذنب العظيم، فإن الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.



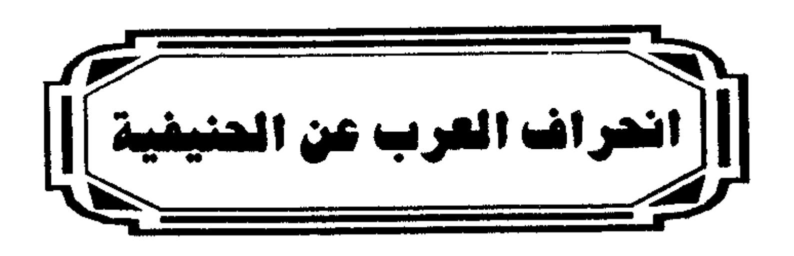
ذرية إسماعيل

وبارك الله في ذرية إسماعيل فتناموا وصاروا قبائل، وانتشروا في الجزيرة العربية، وصاروا يسمون العرب المستعربة، وقد بقوا على دين أبيهم إبراهيم عليه السلام مدة من الزمن، ثم بدأ النقص عندهم، ودخلت عليهم البدع من المجاورين لهم شيئا فشيئا، حتى دخلت

عليهم عبادة الأصنام وكان أول من أدخل الشرك إلى العرب عمرو ابن لُحي الخزاعي.

روى البخاري عن سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ قَالَ: الْبَحِيرَةُ الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ وَلا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَالسَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلِهَتِهِمْ فَلا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ، قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ**».

وفي المسند أيضاً عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو ابن عامر، وإني رأيته يجر أمعاءه في النار**».

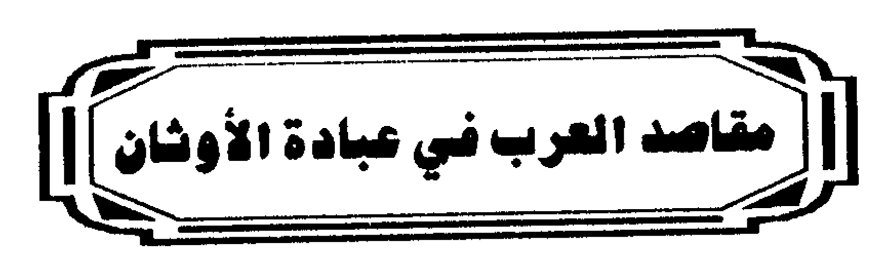


انحراف العرب عن الحنيفية

ترك العرب دين أبيهم إسماعيل، وابتعدوا عن الحنيفية دين أبيهم إبراهيم، وانتشرت بينهم عبادة الأصنام والأوثان، وعددوا فيها إلى حد يثير السخرية؛ حيث كان الواحد منهم في سفره يجمع أربعة أحجار ثلاثة لقدره وواحدا يعبده، وإن لم يجد حلب الشاة على كوم من تراب ثم عبده.

روى البخاري عن أبي رَجَاء الْعُطَارِدِيَّ يَقُولُ: كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الأخَرَ فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ،ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ طُفْنَا بِهِ فَإِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَجَبٍ قُلْنَا مُنَصِّلُ الأَسِنَةِ فَلا نَدَعُ رُمْحًا فِيهِ حَدِيدَةٌ وَلا سَهْمًا فِيهِ حَدِيدَةٌ إلا نَزَعْنَاهُ وَأَلْقَيْنَاهُ شَهْرَ رَجَبٍ، وَسَمِعْتُ أَبَا رَجَاءِ يَقُولُ كُنْتُ يَوْمَ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ غُلامًا أَرْعَى الإِبلَ عَلَى أَهْلِي فَلَمَّا سَمِعْنَا بِخُرُوجِهِ فَرَرْنَا إِلَى النَّارِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ.

وقد عبد قبائل من العرب الشمس والقمر، والملائكة والجن، والكواكب، وبعضهم عبد أضرحة من ينسب إليهم الصلاح. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى** ﴾ قال: كان رجلاً صالحاً يَلُتُّ السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره.



مقاصد العرب في عبادة الأوثان

وكانت العرب تقصد بعبادة الأصنام عبادة الله والتقرب إليه عن طريقها، أو بواسطتها، وهم على طرق مختلفة: فبعضهم يقول: ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته، فاتخذناها لتقربنا إلى الله، وفرقة قالت: إن للملائكة عند الله جاهاً ومنزلةً فاتخذنا

أصناما على هيئة الملائكة لتقربنا إلى اللّـه، وبعضهم جعلوا الأصنام قبلة في عبادة اللّه مثل الكعبة قبلة في عبادته، وفرقة أخرى اعتقدت أن على كل صنم شيطاناً موكلاً بأمر اللّـه، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حاجته بأمر اللّه، ومنهم من يقصدون بذلك شفاعتهم عند اللّه، واتخاذهم زلفى إليه سبحانه. قال تعالى: ﴿**وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللّه زُلْفَى**﴾. وقال تعالى عنهم: ﴿ **وَيَقُوْلُوْنَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّه** ﴾.

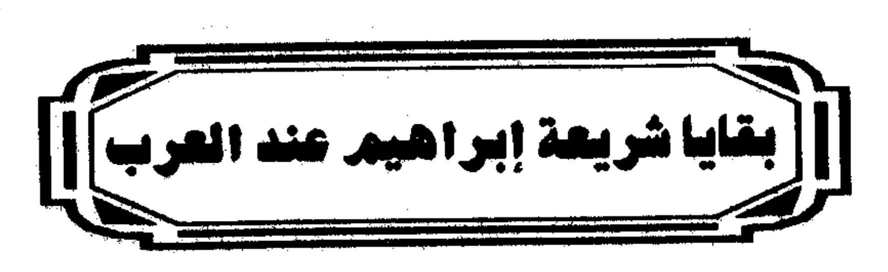
هل كانت العرب تعتقد في أصنامها النفع أو الضر؟

روى الترمذي عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قال النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي يَا حُصَيْنُ: «**كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟**» قَالَ أَبِي: سَبْعَةً سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟**» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ**»، قَالَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ قَالَ: يَا رَسُولَ اللّه عَلِّمْنِيَ الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي**».

قَالَ أَبُو عِيسَى: «**هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ**».

بل كانوا عند الشدائد ينسون آلهتهم ويتخلون عنها كما قال

تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ دَعَوُا اللَّه مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُوْنَ ﴾.



وقد بقيت في العرب بقايا من سنن إبراهيم وشريعته ومن ذلك: خصال الفطرة التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام، كالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان. وكانوا يغتسلون للجنابة، ويغسلون موتاهم ويكفنونهم، وكانوا يصومون يوم عاشورا، ويطوفون بالبيت، ويسعون بين الصفا والمروة، ويمسحون الحجر ويلبون إلا أنهم يشركون في تلبيتهم يقولون: «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك»، ويقفون المواقف كلها، ويعظمون الأشهر الحرم.

وكانوا يحرمون نكاح المحارم، وعملوا بالقسامة، واجتنب بعضهم الخمر في الجاهلية وكانوا يغلظون على النساء أشد التغليظ في شرب الخمر[١].

وهم على اعترافهم بالله وبعظمته وبتدبيره للأمور، وأنه الرازق

---

(١) بلوغ الأرب ٢/٢٨٦ - ٣٠٠.

الخالق المحيي المميت، وأن جميع الخلق تحت قهره وتصرفه، إلا أنهم اتخذوا من دون الله وسائط يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ۞ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُوْلُوْنَ اللَّه فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُوْنَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيْهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ۞ سَيَقُوْلُوْنَ للَّه قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُوْنَ۞ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيْم ۞ سَيَقُوْلُوْنَ للَّه قُلْ أَفَلا تَتَّقُوْنَ ۞ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيْرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ۞ سَيَقُوْلُوْنَ للَّه قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُوْنَ ﴾.

فهم بذلك يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحي إلا هو، ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات ومن فيهن والأرضين ومن فيها عبيده وتحت تصرفه وقهره، ومع ذلك يشركون به ويدعون معه غيره، بل كانت الكعبة -وهي بيت الله المعظم- عندهم يحيط به ثلاث مائة وستون صنماً.

تلك الحياة الجاهلية بكل صورها وفي جميع أماكنها وبقاعها، قد صورها المصطفى ﷺ في الحديث العظيم الذي رواه عنه عياض بن حمار المجاشعي حيث قال: إن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي**

هذا، كل مال نحلته عبداً حلال. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم. وأَمَرَتْهُمْ أن يشركوا بي ما لم أُنَزِّل به سلطاناً. وإن اللّه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب »[١].

فالحديث يشير إلى انحراف الناس عن الشريعة ونبذها وراءهم ظهريا، واختراع أنظمة وقوانين من عند أنفسهم، فحرموا الحلال وأحلوا الحرام (**كل مال نحلته عبداً حلال... وحرمت عليهم ما أحللت لهم**) وهذا ردٌّ على ما شرعوه من السوائب والوصيلة والحام والبحيرة، مما يدعونه لآلهتهم، وقد شرع اللّه أن كل مال رزقه عبداً من عباده فهو حلال له.

كما يوضح الانحراف عن التوحيد والردة الكاملة عن الدين، أنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم.

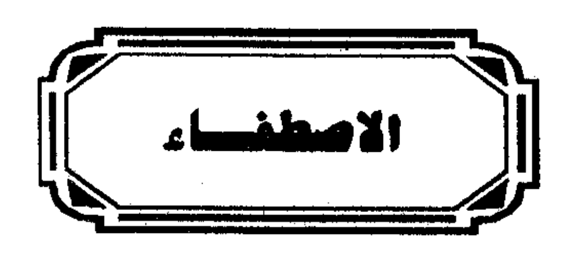
وأمرتهم أن يشركوا باللّه ما لم ينزل به سلطاناً، كما يشير إلى الفساد العظيم الذي غطى وجه الأرض مما استحق الناس مقت اللّه لهم جميعا إلا بقايا من أهل الكتاب.

وأصبحت البشرية بحاجة ماسة إلى منقذ لها من الضلالة إلى

---

(١) رواه مسلم ٤/٢١٩٧.

الهدى ومن ظلمة الشرك إلى نور التوحيد والإيمان، ومن الشقاء إلى السعادة في الدنيا والآخرة.



الاصطفاء

في هذا الجو القاتم والزمان المدلهم بالشرك بعث المصطفى ﷺ.

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم — إلا على صنم قد هام في صنم
مسيطر الفرس يبغي في رعيته — وقيصر الروم من كبر أصم عمي

وفي صحيح مسلم أن رسول اللّه ﷺ قال: «**إن اللّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(١).

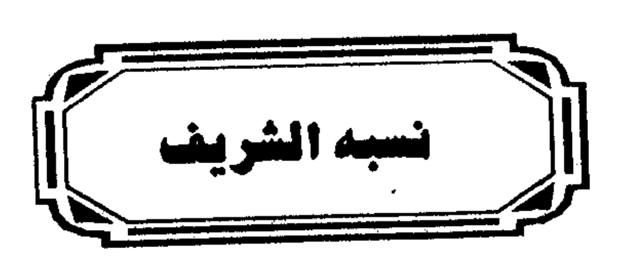
وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ**».

وروى أحمد عن عبد اللّه بن مسعود قال: إن اللّه نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه

---

(١) شرح النووي ١٥/٢٦.

لنفسه فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه ، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند اللّه حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند اللّه سيء.



هو محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي من غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وعدنان من نسل إسماعيل عليه السلام.



ولد يوم الاثنين كما ورد ذلك في صحيح مسلم لما سئل عن صيام يوم الاثنين قال: « **ذاك يوم ولدت فيه** » .

في عام الفيل وهو أرجح الأقوال.

وتتفق رواية مسلم مع ابن إسحاق في كون والده مات وهو حمل في بطن أمه [١].

وفي الصحيحين أن ثوبية مولاة أبي لهم قامت بإرضاعه ﷺ، كما أرضعته مولاته أم أيمن وقد أعتقها عليه الصلاة والسلام بعد ما كبر[٢].

أما رضاعه من حليمة السعدية في بني سعد فهذا مما استفاض واشتهر، وقد ورد استرضاعه في بني سعد بسند جيد من طريق ابن إسحاق. تقول حليمة السعدية مرضعته لما أخذته من أمه: « فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا نـنام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا أنها لحافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة ».

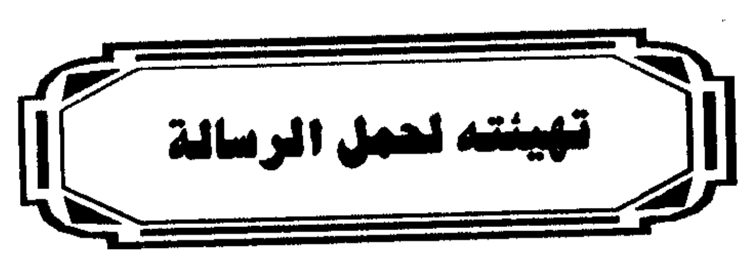
إلى أن قالت: « ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض اللّه أجدب منها ، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع.. فلم نزل نتعرف من اللّه الزيادة والخير ».

---

(١) صحيح مسلم ١٣٩٢/٣ .

(٢) صحيح مسلم ١٣٩٢/٣ .

فأنزل الله عليهم البركة في أنفسهم وأموالهم بسبب قيامهم بأمر صفيه وحبيبه ﷺ.



تهيئته لحمل الرسالة

ثم كانت تلك الحادثة العظيمة في بني سعد في شق صدره ونزع حظ الشيطان منه تهيئة له لتحمل الرسالة:

روى ابن إسحاق بسند جيد أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن نفسه فقال: **«نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه. زنه بعشرة من أمته. فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنني بمائة فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنهم»**[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٧٥، ابن كثير، السيرة ١/٢٩٩ .

وروى مسلم عن أنس بن مالك: أن رسول اللّه ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره- فقالوا: إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

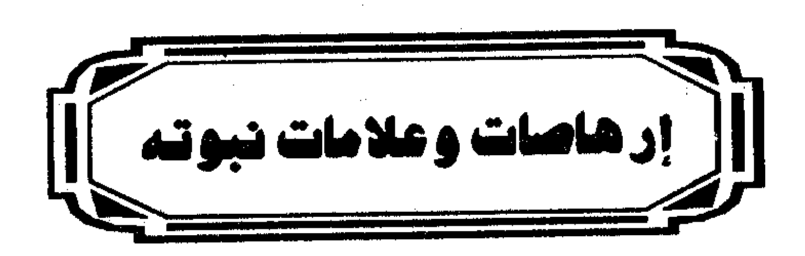
كفالته بعد وفاة والدته

وقد ماتت أمه وعمره ست سنوات ، فكفله جده عبد المطلب ثم مات بعد سنتين فأوصى به إلى عمه أبي طالب فكفله عمه وحن عليه ورعاه.

وقد شب مع عمه أبي طالب تحت رعاية اللّه وحفظه له من أمور الجاهلية وعادتها السيئة.

« فكان أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطةً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانةً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى، ما رؤي ملاحياً ولا ممارياً أحداً، حتى

سماه قومه الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة »[١].



وقعت عدة أحداث كانت بمثابة إرهاصات وعلامات ودلالات على نبوته ﷺ ومنها:

١- تسليم الحجر.

فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: **« إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن »**[٢].

٢- الرؤيا الصادقة.

أما الرؤيا الصادقة فكما روت عائشة رضي الله عنها أن أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[٣].

٣- العزلة والتحنث.

لقد حبب إليه الخلوة فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنث فيه

---

(١) سيرة ابن كثير ١/٢٤٩.

(٢) رواه مسلم ٤/١٧٨٢.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وهو التعبد الليالي ذوات العدد. كما في الصحيحين.

وفي التعبد درس للمسلم والداعية ليستعين بعبادة اللّه تعالى على مقاومة نزعات النفس، وشهواتها، ومغريات الحياة وأعراضها، ويتحمل مشاق الدعوة ومشاكلها وشدائدها، ويصبر على تربية الناس وتوجيههم وما يصدر عنهم من إعراض أو مشاقة للداعية.

الوحي وتبليغ الرسالة

ما كان النبي ﷺ في تعبده وتحنثه ينتظر النبوة أو يترقبها، بل لم تكن تخطر على باله كما ذكر اللّه تعالى في كتابه حيث قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوْحَاً مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِيْ مَا الكِتَابُ وَلا الإِيْمَانُ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْرَاً نَهْدِيْ بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوْ أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَاب إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُوْنَنَّ ظَهِيْراً لِلكَافِرِيْنَ ﴾.

بعث ﷺ وعمره أربعون سنة كما في الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: « أنزل على رسول اللّه ﷺ وهو ابن أربعين سنة،

---

(١) الزخرف: ٢٥.

فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثم توفي ﷺ »[1].

وكان ذلك في شهر رمضان المبارك كما في رواية البخاري في كتاب بدء الوحي.

وقد جاور في الغار تلك السنة شهراً كاملاً كما ورد في صحيح مسلم.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة في ذكر بدء الوحي قالت: « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم -وفي رواية أخرى: الصادقة- فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها. حتى جاءه الحق وهو في غار حراء.

فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال:

---

(١) الفتح ٧/١٩٩ ، ٢٦٧.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِيْ خَلَقَ۝ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم ﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة -وأخبرها الخبر- لقد خشيت على نفسي[1].

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة. وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي

---

(١) من الموت أو المرض أو دوام المرض.

هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي ».

وَقِفْ أخي مع كلمة: (وفجأه الوحي) لتعلم كيف تحمل الرسول ﷺ وهو في حال عزلته وتحنثه وخلوته فيدخل عليه شخص غريب بصورة عجيبة ثم يضمه إليه ويقول: اقرأ. لاشك أنه بقي خائفاً وهو علامة على ثباته ﷺ. وهكذا من تحمل هذا الدين ينبغي له أن يصبر ويعلم أنه لم يصل إليه إلا بعد تعب ونصب قاسى فيه رسول اللّه ﷺ أصنافاً من العنت والتعب.

فكان رسول اللّه ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يأتيه في اليوم الشاتي فيتفصد جبينه عرقا، وقد كادت رجل زيد بن حارثة أن ترتض لما نزل الوحي ورأسه على رجله.

وفي مسلم عن عبادة بن الصامت: « كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه وغمض عينيه ».



تبليغ الرسالة

وقد أمر اللّه نبيه ﷺ بالدعوة وتبليغ ما أنزل إليه فبدأ بدعوة من يثق به سرا عن سماع المشركين، ومكث على هذا رسول

الله ﷺ ثلاث سنين مسرا بالدعوة منذ أرسله الله حتى بادأ قومه بالدعوة، يدعو سرا من يثق به من بني قومه، حيث لم يأمره الله تعالى بالجهر بالدعوة والصدع بها.

وكان المسلمون جميعا يكتمون إسلامهم ويخفونه عن أقوامهم وأهليهم. روى البخاري عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ للمقداد: **«إذا كان رجل ممن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل»**(١).

ولسرية الدعوة حكم عظيمة وفيها دروس وعظات ومنها:

١- التخفيف على الرسول ﷺ حتى لا يواجه العدو وحده من أول يوم مع فقدان الناصر.

٢- استطاع الرسول ﷺ في هذه الفترة أن يستقطب أتباعاً وأنصاراً للدعوة تمكن من تربيتهم والعناية بهم فكانوا خير عون وسند له بعد الجهر بالدعوة، وهم الذين قامت عليهم الدعوة إلى الإسلام، فكانوا هم البنية الأساسية والقاعدة الصلبة والعمود الفقري للدعوة إلى دين الله عز وجل.

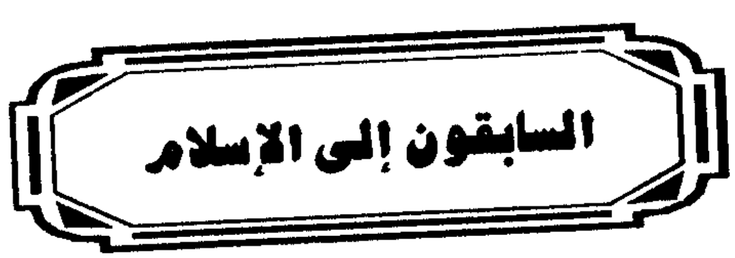
٣- إن الإسرار بالدعوة أمر مرحلي واستثنائي لظروف وملابسات خاصة هي ظروف بداية الدعوة.

---

(١) الفتح ٧٨١/٢١ ح ٦٦٨٦.

وعلى هذا فإن الإسرار بالدعوة كلها بعد النبي ﷺ مخالف للأصل الثابت المستقر، فلا يجوز اللجوء إليه إلا عند الضرورة، أما الإسرار بما سوى ذلك من الوسائل والخطط والتفصيلات فهو أمر مصلحي خاضع للنظر والاجتهاد إذ لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان وإبلاغ.

ولهذا فإن النبي ﷺ حتى بعد أن صدع بالدعوة وأنذر الناس وأعلن النبوة ظل يخفي أشياء كثيرة لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان، كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم؟ وما هي الخطط التي يتخذونها إزاء الكيد الجاهلي، ومن أمثلة ذلك قصة الهجرة، وقصة أبي ذر وعمرو بن عبسة.



السابقون إلى الإسلام

إن من النتائج الطبيعية لحداثة الدعوة وسريتها أن يكون أتباعها أفرادا معدودين.

ولا ريب أن أول من تابع رسول الله ﷺ وآمن به خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وعلي بن أبي طالب الذي كان تحت رعاية النبي ﷺ وكفالته وكان صغيرا لا يتجاوز العاشرة من عمره، وأبو بكر صديق النبي ﷺ وجليسه وكان رئسا مقدما ومكرما لدى

قريش إليه المرجع في أنسابها، وكان تاجراً صاحب مال محبباً متألفاً.

قال ابن إسحاق في وصف أبي بكر: «وكان رجلاً مؤلفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق حسن ومعروف، وكان رجال قومه يأوون إليه ويألفونه لعلمه وتجارته وحسن مجالسته».

وقد استثمر أبو بكر ثقة الناس به ومجالستهم له ومحبتهم لمجلسه بدعوة من يثق به إلى الإسلام، فأسلم على يديه في الأيام الأولى طليعة أهل الإسلام وهم: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. وهؤلاء من العشرة المبشرين بالجنة على لسان الرسول ﷺ.

ولا شك أن أهل بيته كانوا من أوائل من دخل في الإسلام، للحديث المخرج في البخاري في قصة الهجرة عن عائشة قالت: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين.

وذكر أن ممن أسلم على يد أبي بكر: مصعب بن عمير، وعياش ابن أبي ربيعة، والأرقم بن أبي الأرقم ابن عبد مناف بن أسد، وعثمان بن مظعون الجمحي[1].

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣٠٥/٢ .

الدروس والعبر:

١- بيان أثر مجالسة الأخيار وصحبتهم وبركتها على من جالسهم فعلي بن أبي طالب ﷺ اكتسب هذه المكانة من إيواء الرسول ﷺ له دون سائر إخوانه، وأبو بكر من صحبته وصداقته لرسول الله ﷺ .

٢- أثر الأخلاق الحسنة في تأليف الناس، وخير الناس من يألف ويؤلف، أما الجفاء والغلظة فكثيرا ما تكون عائقاً في طريق الدعوة.

٣- لاشك أن أصحاب الجاه والمال لهم أثر كبير في كسب أنصار للدعوة.

٤- إن قيام أبي بكر بالدعوة إلى الله تعالى يوضح صورة من صور التفاعل بهذا الدين والاستجابة لله ولرسوله ﷺ صورة المؤمن الذي لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، حتى يحقق في واقع الحياة ما تشبع به وآمن به، دون أن تكون انطلاقته دفعة عاطفية مؤقتة سرعان ما تخمد وتذبل وتزول[1].

٥- يلاحظ أن الإسلام انتشر في جميع عشائر قريش فلم يعتمد

(١) الغرباء ص ١٣١ .

على القبلية التي كانت إذ ذاك محور الحياة عند العرب، فلم يكن نصيب بني هاشم أكثر من غيرهم في الإسلام.

٦- دخول مختلف القبائل في الإسلام وعدم اقتصاره على بني هاشم في بداية الدعوة حققت مصلحة عظمى في عدم اعتباره عملا يحقق مصالح العشيرة التي ينتمي إليها رسول اللّه ﷺ ويعلي من قدرها على حساب الآخرين.

٧- أعان هذا أيضا على انتشار الإسلام في جميع العشائر والقبائل دون أي تحفظات أو اتهامات شخصية للداعي أو الدعوة [١].

٨- لقد كان الذين أسلموا في الطليعة الأولى ظلوا دائما في الطليعة في الحرب والسلم والسياسة والحكم أئمة في العلم والفقه والفتيا والسابقين في سائر الأمور، فلم يكن عملهم فترة حماس وخبت وفترت وزالت، وإنما هي إيمان عميق يحرك العواطف والنفوس والعقول للعمل لهذا الدين. فلم تعرف تلك الطليعة راحة ولا ترفا ولا نوما ولا كسلا منذ أسلمت حتى لقيت اللّه تعالى رضي الله عنهم أجمعين.

٩- لقد كانت هذه الطليعة غريبة في ذلك المجتمع الجاهلي الذي يعج بالفوضى والفساد والانحلال، ولكن غربتهم ليست كالغربة

---

(١) السيرة الصحيحة ١/١٣٢ - ١٣٣ .

المتعارف عليه من شعور الغريب بالضعف والذل والانكسار والرضى بالدون، والخضوع والضعة، لقد ربى الإسلام فيهم روح العزة والكرامة والاستعلاء والفوقية على الكافرين، ثم شعور بوجوب غزو هذا المجتمع الجاهلي وتقويض أركانه، يصاحب ذلك همة وثقة تامة بنصر هذا الدين والتمكين له في الأرض، فكانوا يتسابقون للمشاركة في رفع راية الإسلام، ويهم الواحد منهم أن يكتب الله على يديه التمكين لهذا الدين.

الجهر بالدعوة

إن الدعوة لم تنزل لتكون سرية يخاطب فيها الفرد بعد الآخر، وإنما جاءت نذارة للعالمين وبشارة للخلق أجمعين؛ لإخراج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، لقد أنزل على رسول الله ﷺ وهو بعد محصور في مكة وقريش تكيد له وتعاديه أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِيْنَ﴾، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلعَالَمِيْنَ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِيْنَ﴾ وإذا كان الأمر كذلك فإن الدعوة الإسلامية ليست خاصة بقريش ولا بالعرب، وإنما هي رحمة من الله لجميع الخلق، فلابد من الجهر بها، وإعلانها للناس، والسعي

لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة.

وهذا يعني بداهة أن من أبرز خصائص دعوة الإسلام: الإعلان، والصدع، والبلاغ، والنذارة، والبشارة، ويتحمل أتباعها ما يترتب على ذلك من الإيذاء والقتل وغيره.

لقد مكث رسول الله ﷺ ثلاث سنوات يدعو إلى الله تعالى سرا ثم أمره الله تعالى أن ينذر عشيرته الأقربين فأنذرهم، ثم أمره بالصدع بالدعوة فصدع بها.

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه، فقالوا: من هذا: فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم. قال أبو لهب: تباً لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تبتْ يَدَا أَبِيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [١]».

وفي تفسير سورة الشعراء من البخاري: «قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً» [٢].

---

(١) البخاري ح ٤٩٧١ ، ومسلم ١/١٩٤ .

(٢) الفتح ٨/٣٦٠ .

وعن أبي هريرة قال: « فقام رسول اللّه ﷺ حين أنزل اللّه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ﴾ قال: يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من اللّه شيئا. يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من اللّه شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغنى عنك من اللّه شيئاً. ويا صفية عمة رسول اللّه ﷺ، لا أغنى عنك من اللّه شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد ﷺ، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من اللّه شيئاً »[1].

الدروس والعبر:

١- بداية الأقربين بالدعوة حتى لا يكونوا حجة للأبعدين، والحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم، وهم أولى بالبر والخير بالنسبة للداعي من غيرهم لما في ذلك من صلة الرحم.

٢- دعوة الأقربين بيان للناس عدم محاباة الرسول ﷺ في دعوته، وبيان صدق ما جاء به إليهم حيث خص بما جاء به أقاربه وأهل بيته قبل غيرهم من الناس.

٣- إعلان الرسول ﷺ المنهج الإسلامي من أول يوم في منازل الناس وأن جزاءهم عند اللّه ونصيبهم في الإسلام يكون بقدر

---

(١) رواه البخاري ح ٤٧٧١ ، ومسلم .

طاعتهم، فالأنساب والبقاع لا تزكي أحدا . فأبو لهب هو الشخص الوحيد من قريش الذي ذكر باسمه في القرآن في معرض المقت والوعيد فلماذا؟ لقد اجتمع لأبي لهب عدة مزايا ، فشهر بجمال الوجه، ورزق الثروة، وكان له الشرف والجاه، كما كانت له القرابة من رسول الله ﷺ ، فلعل اختصاصه بذكر الاسم لبيان أن أياً من هذه المزايا لا تغني عن صاحبه من مقت الله وعذابه إذا خالف أمره.

٤- إذا كان سيد العالمين رسول الله ﷺ لا يملك لسيدة نساء أهل الجنة فاطمة رضي الله عنها شيئا فكيف بغيرها.

٥- لاشك أن النتيجة القريبة المباشرة للجهر بالدعوة هي الصد والإعراض والتكذيب والإيذاء والسخرية، والرسول ﷺ قد وطن نفسه على ذلك كله ويعرف تلك النتيجة مسبقا، ولكن ليست هذه هي كل النتيجة ، فما بعدها هو المطلوب والمقصود.

٦- إن الجهر بالدعوة ينقلها من مكان مغلق إلى الهواء الطلق والميدان الرحب، وممن سيساهم في نقل الدعوة هم أعداؤها عن طريق التحذير منها، والناس ليسوا كلهم تقليديين إمعات يتبعون ما تقوله قريش، وهناك أمثلة من إسلام بعض القبائل بسبب ما سمعوه من سب للرسول ﷺ ودعوته فحمله على الاطلاع على الأمر من قرب فدخلوا فيه.

٧- قد تفقد الدعوة في بدايتها وسائل الإعلام المطلوبة للتبليغ ولكن أعداءها قد يقومون بجزء من ذلك نيابة عنها وذلك بما تثيره على الدعوة من كيد وشبهات.

مقاومة قريش للدعوة

لاشك أن إعلان الدعوة إلى التوحيد في أوساط قريش قد أزعج قريشاً ورأوا فيها معتقدا يهدد معتقداتهم الموروثة التي عشعشت في عقولهم، ويهدد مصالحهم العامة التي بنيت على تلك المعتقدات الباطلة واستفادوا منها مركزاً بين القبائل العربية. فانتصب المشركون لعداوة الرسول ﷺ ومقاومة دعوته وإلحاق الأذى به وبأصحابه، وكان أصحابه وهم في الجاهلية يأنفون الذل ويأبون الضيم، ويتفاخرون بالأخذ بالثأر حتى كانوا يثأرون لقتل جمل كما في حرب البسوس، أو إذلال فرس كما في حرب داحس والغبراء، ولما جاء الإسلام رفع من مكانتهم وزاد في عزتهم، ولكن جاءهم ما لم يكن يعرفوه أو يألفوه من الضيم والظلم والإذلال، فيرون بلالاً يُجَر في الشوارع، وياسر وسمية يُقتلان علناً، وأفضل الخلق رسول الله ﷺ يلحق به أشد أنواع الأذى فيبصق في وجهه الشريف، ويوضع على ظهره وهو ساجد فرث الجزور وسلاها ودمها، ويضربونه حتى

يغمى عليه وتسيل الدماء من جسده الشريف، ويستهزؤن به، ويصفونه بالجنون والكهانة.

اتهموه بالجنون كما قال سبحانه: ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِيْ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُوْن** ﴾.

واتهموه بالسحر والكذب قال سبحانه: ﴿ **وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُوْنَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** ﴾.

فأراد الصحابة الانتقام والأخذ بالثأر ولكن النبي ﷺ أمرهم -على الرغم من شدة ما يواجهونه من الأذى والضرر- أمرهم بضبط النفس والتحلي بالصبر، وعدم الرد بالقوة، أو مقابلة العدوان بالعدوان حتى اشتكوا إليه فقالوا -كما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ بمكة- فقالوا: يا رسول الله: « إنا كنا في عزٍ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلَّةً، فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا، فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال، فكفوا، فأنزل الله عز وجل ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ قِيْلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيْمُوا الصَّلاةَ** ﴾[1].

وكانت أول آيات القتال الإذن به وفي هذا دلالة على المطالبة به والحرص عليه لشدة ما صبروا قال تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقَاتَلُوْنَ**

---

(١) تفسير الطبري ٥/١٧٠ ، المستدرك ٢/٣٠٧، وقال: على شرط البخاري، وأقره الذهبي، سنن النسائي ٦/٢ ، السنن الكبرى للبيهقي ٩/١١.

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾.

وفيه دلالة على أن الصبر على الدعوة أشد من القتال والجهاد في سبيل اللّه تعالى بدلالة أن القتال جاء فرجا مما يعانونه من الصبر على أعدائهم.

وأخرج الحاكم عن خباب ﷺ قال: أتيت رسول اللّه ﷺ وهو مضطجع تحت شجرة، واضع يده تحت رأسه، فقلت: يا رسول اللّه ألا تدعو اللّه على هؤلاء القوم الذين قد خشينا أن يردونا عن ديننا، فصرف عني وجهه ثلاث مرات، كل ذلك أقول له فيصرف وجهه عني، فجلس في الثالثة، فقال: «**أيها الناس: اتقوا اللّه واصبروا فواللّه إن كان الرجل من المؤمنين قبلكم ليوضع المنشار على رأسه فيشق باثنين، وما يرتد عن دينه، اتقوا اللّه فإن اللّه فاتح لكم وصانع**»[1].

فهنا يطلب خباب من رسول اللّه ﷺ الدعاء عليهم ورسول اللّه ﷺ يأمره بالصبر مع أن خباباً قد عذب وأوذي أشد الأذى حتى كان يطرح على الجمر فما يطفئه إلا شحم ظهره ﷺ.

وروى البخاري عن خباب بن الأرت ﷺ قال: «أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة -وقد لقينا من

---

(١) المستدرك ٣/٣٨٣ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وأقره الذهبي.

المشركين شدة- فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد؛ ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه. وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله -زاد بيان «والذئب على غنمه»-[1].

وكانوا يؤمرون بالاستعانة على تحمل الأذى والتعذيب بالصلاة التي هي عنوان الصلة الدائمة بالله تعالى قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾. فقام الرسول ﷺ وأصحابه قريباً من سنة، فنزل التخفيف[2].

وقد كانت بغية الشيطان في المواجهة والتصعيد يشهد لذلك قصة الزبير بن العوام ﷺ كما رواها عروة بن الزبير قال: «إن أول رجل سلَّ سيفه في الله الزبير بن العوام، نفخة نفخها الشيطان: أُخِذَ رسول الله ﷺ فخرج الزبير يشق الناس بسيفه والنبي ﷺ بأعلى

---

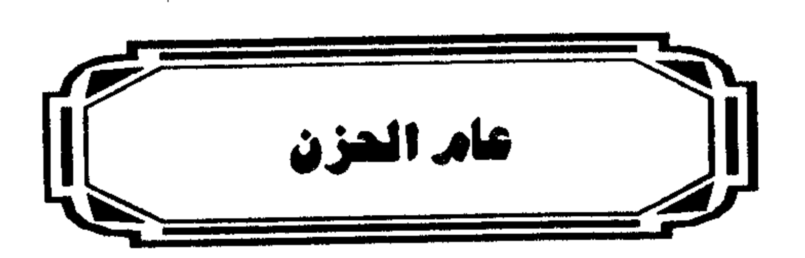
(١) الفتح ٢٠٢/٧.

(٢) سنن أبي داود ٧٢/٢ ح ١٣٠٥ ، وتفسير الطبري ٧٩/٢٩ .

مكة، قال: مالك يا زبير؟ قال: أخبرت أنك أُخِذْتَ، قال فصلى عليه ودعا له ولسيفه »، وفي رواية أخرى: « فأخبر أن النبي ﷺ قُتِل »(١).

وأصبح أهل مكة كل يوم في ازدياد في حرب الرسول ﷺ وأصحابه، فأمر أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة ليسلموا من أذى قريش وقال لهم: « إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ».

واشتدت قريش في أذاها للنبي ﷺ وأصحابه حتى حصروهم في شعب من شعاب مكة ثلاث سنوات لا يبيعونهم ولا يشترون منهم، حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الحاجة.



وبعد فك الحصار توفي عمه أبو طالب الذي كان يذب عنه

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٢٤١/١١، وأحمد في فضائل الصحابة ح١٢٦٦، وابن أبي شيبة في المصنف ٩٢/١٢ - ٩٣، والزبير بن بكار، والفاكهي في أخبار مكة ١٣٠/٤- ١٣١، والطبراني في المعجم الكبير ٧٨/١، والطبراني في الأوائل رقم ٢٦، وأبو نعيم في الحلية ٨٩/١ ، وعزاه الحافظ في الإصابة ٥٢٧/١ للزبير بن بكار، وأورد ابن عبد البر روايته في الاستيعاب ٥٦١/١ من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه، ونحوه عند البيهقي في الكبرى ٣٦٧/٦.

ويحوطه ويحامي عليه، ثم توفيت زوجته خديجة رضي الله عنها التي كانت تسري عنه همومه وتهون عليه أتعابه، فسمي ذلك العام عام حزن، وخلصت قريش وسفهاؤها إلى أذى للنبي ﷺ بما كانت لا تصنعه في حياة عمه.

الإسراء والمعراج

ثم كانت حادثة الإسراء والمعراج كما رواها مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ»، قَالَ: «فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ»، قَالَ: «فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ»، قَالَ: «ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ»، فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ (ثم عرج به إلى السموات فلقي فيها الأنبياء، ولقي موسى في السماء السادسة قال:) ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ:

مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّه مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّه يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا فَأَوْحَى اللَّه إِلَيَّ مَا أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: « خَمْسِينَ صَلاةً »، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: « يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي »، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: « حَطَّ عَنِّي خَمْسًا »، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: « فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ».

قَالَ: « فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ:

ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ »، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ ».

ومن هنا تعلم أهمية الصلاة: فقد فرضت من بين أركان الإسلام في السماء السابعة فأصبحت الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين وأصبحت قرة عين النبي ﷺ .

روى عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ ».

فكان يصلي ويطيل القيام حتى إنتفخت قدماه الشريفتان كما روى مسلم في صحيحه عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ: أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: « أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ».

وكان يسمع لصدره وهو في الصلاة أزيز من البكاء، كما روى أبوداود والترمذي وابن ماجة عنْ ثَابِتٍ عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ ﷺ .

ولما حدث رسول اللّه ﷺ قريشا بالإسراء والمعراج كذبوه واستهزؤا به وانطلقوا إلى أبي بكر الصديق ظانين أنه سيشك في صدق رسول اللّه ﷺ . فقالوا: إن صاحبك يخبر أنه أتى بيت المقدس

وصعد إلى السماء في ليلة واحدة! فقال الصديق: لإن كان قاله فقد صدق.

العرض على القبائل

قال ابن كثير: «والمقصود أن رسول الله ﷺ استمر يدعو إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم ومحافلهم وفي المواسم، ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق عنده في ذلك شرع سواء..»[1].

وكان أتباع رسول الله نزاعاً من القبائل وكانوا غرباء، لا قبيلة تحميهم، وكان رسول الله ﷺ يرتاد للدعوة موطناً تحتمي به، وكان يأمر من اتبعه من القبائل خارج مكة أن يقوا في قبائلهم ويستخفوا حتى يظهر.

عن سالم بن أبي الجعد عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف، فقال: «ألا رجل يحملني إلى

(١) البداية ٣/٤٠.

قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي »[١].

روى عبد الله بن ذكوان عن ربيعة بن عباد الديلي قال: رأيت رسول الله ﷺ بصَرُ عيني بسوق ذي المجاز يقول: « يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا »، ويدخل في فجاجها، والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول: « أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا »، إلا أن وراءه رجلاً أحول، وضيء الوجه، ذا غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة، قلت: من هذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب. قلت: إنك كنت يومئذ صغيراً؟ قال: لا والله إني يومئذ لأعقل[٢].

وعن طارق بن شداد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ مرتين، رأيته بسوق ذي المجاز، وأنا في بياعة لي، فمر وعليه حلة حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: « أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا »، ورجل يتبعه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول:

---

(١) رواه أهل السنن، والدارمي، وأحمد، وإسناده صحيح. الغرباء: ص١٧٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده / ٤٦٢، ٤/٣٤١-٣٤٢ ، والبيهقي في الدلائل ١٨٢/٢، والطبري في التاريخ ٣٤٨/٢، والحاكم ١٥/١، المعجم الكبير ٥٦/٥، شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٧٢١/٤.
وانظر: الغرباء: ص ٩٩.

يا أيها الناس، لا تطيعوا هذا، فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا غلام من بني عبد المطلب، فقلت: من هذا الذي يرميه بالحجارة، فقيل: عمه عبد العزى، أبو لهب»(١).

وعن شيخ من بني مالك بن كنانة - رأى النبي ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، قال: وأبو جهل يحثي عليه التراب، ويقول: أيها الناس، لايغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات والعزى، قال: وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ »(٢).

الدروس والعبر:

١- هذه القصص تكشف عن مدى الجهد والكيد الذي بذلته قريش في محاربة الدعوة وصاحبها على المستوى الفردي والجماعي.

٢- حمل الرسالة في مجتمع ضال معناه أن المصلح سينكر أشياء

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٣٠٠/١٤، ابن خزيمة ٢٨/١، الحاكم ٦١٢/٢ وصححه ووافقه الذهبي، موارد الظمآن ص: ٤٠٦، وخلق أفعال العباد ح ١٩٤، سنن الدارقطني ٤٤/٣، وشرح أصول اعتقاد ٧٦٠/٤، المعجم الكبير ٣٧٦/٨، سنن البيهقي ٦٧/١. وانظر: الغرباء: ص ١٠١.

(٢) المسند ٣٦/٤، ٣٧١/٥، ٣٧٦، البيهقي في الدلائل ١٨٦/٢، السير والمغازي ص: ٢٣١، إتحاف الخيرة المسندة ٣/ ٣/ ل/١٩، وقال الذهبي: إسناده قوي. السيرة ص: ٦٨، وصحح الألباني إسناد أحمد. دفاع عن الحديث والسيرة ص: ٢٢.

تعارف عليها الناس فعليه بتوطين نفسه على تحمل المعارضة والمحاربة والإيذاء.

٣- لقاء الرسول ﷺ مع بعض القبائل لم يدخلها الإسلام لكن على أقل تقدير أثار التساؤل عندهم، والتشكيك فيما هم عليه من معتقدات. واستثمرهم كأداة إعلامية لأقوامهم وديارهم، حيث أنهم سيتحدثون بما وجدوه في سفرتهم هذه وسيذكرون من لقوا ومن لقيهم وما هي الأحاديث التي دارت معهم.

٤- لم يكن الرسول ﷺ يفرط في فرصة من الفرص أو مجال من المجالات في تبليغ دعوته كما كان يفعل في المواسم والأسواق.

٥- كان رسول اللّه ﷺ يبحث عن مأوى ومحضن للدعوة تحتمي به حتى تكون حرة طليقة.

٦- استخدام قريش في الصد عن رسول اللّه ﷺ أخطر وسيلة إعلامية آن ذاك وهو عمه أبو لهب في زمن يعتبر للقبيلة وزنها في الدفاع عن أصحابها على حد القائل:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

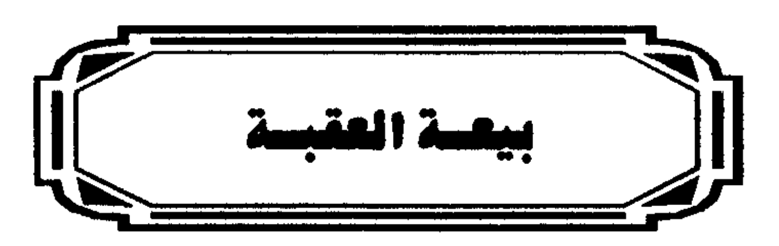
وفي زمن تقوم الحرب الطاحنة بسبب إهانة جمل امرأة من القبيلة فكيف برجل منها. وما أشق ذلك على نفس الرسول ﷺ المكلف بالتبليغ عن ربه، والذي يدعو الناس بالكلمة الطيبة وهو

وحيد غريب، فينبري أقرب الناس إليه يطارده أمام الناس الناظرين إليه، يرميه بالحجارة فيدمي عقبيه، ويحثو التراب على رأسه ووجهه، ويكيل له التهم وهو المعروف بينهم بالأمانة والصدق والوفاء.

٧- ثقة الرسول ﷺ بنصر اللّه له جعلته لا ييئس ولا يمل، ويدأب في الدعوة وعرضها على القبائل والأفراد في جميع المواسم وعلى كل المستويات.

٨- صبر الرسول ﷺ على مشاق الدعوة وعوائقها وتبعتها فلم يضعفه موقف سخرية، ولم يحبط همته استهزاء مستهزئ.

٩- كان رسول اللّه ﷺ أول ما يعرض على القبائل كلمة التوحيد (لا إله إلا اللّه) لأنها أساس الإسلام.



بيعة العقبة

قال جابر بن عبد اللّه: مكث رسول اللّه ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى يقول: «**من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة ؟**» حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر -كذا قال- فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم وهم يشيرون إليه

بالأصابع، حتى بعثنا اللّٰه إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام.

وبعثنا اللّٰه إليه فائتمرنا واجتمعنا وقلنا: حتى متى رسول اللّٰه ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا بيعة العقبة. فقال له عمه العباس: يا ابن أخي لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب.

فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس في وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث!

فقلنا: يا رسول اللّٰه، علام نبايعك؟

قال: « **تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في اللّٰه لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة** ».

فقمنا نبايعه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة -وهو أصغر السبعين- إلا أنه قال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا

ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم وأن يعضكم السيف. فإن أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، ومفارقة العرب كافة، فخذوه وأجركم على الله، وإن أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر عند الله عز وجل! فقالوا: يا سعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها، قال: فقمنا إليه رجلاً رجلاً، فأخذ علينا، ليعطينا بذلك الجنة(١).

بعض الدروس والعبر والفوائد:

١- تتبع الرسول ﷺ للناس في منازلهم وأسواقهم عشر سنين يكشف لنا مدى الجهد والتعب الذي بذله الرسول ﷺ في دعوته ومدى صبره ومواصلته للعمل وعدم اليأس من صلاح الناس وهدايتهم.

٢- حجم الدعاية الإعلامية التي شنتها قريش ضد الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٣٢٢ - ٣٢٣ ، ٣٣٩ - ٣٤٠ بإسناد حسن كما قال في فتح الباري ٧/٢٢٢، والبزار (كشف الأستار ٢/٣٠٧)، وابن حبان (الموارد ص ٤٠٨) والبيهقي في الدلائل ٢/٤٢٢، والسنن ٩/٩، والحاكم ٢/٦٢٤ وأقره الذهبي ، أخبار مكة للأزرقي ٢/٢٠٥، أخبار مكة للفاكهي ٤/٢٣١، كشف الأستار ٢/٣٠٧، موارد الظمآن ص ٤٠٨ ، شرح أصول الاعتقاد ٤/٧٦٣ وقال ابن كثير: إسناده جيد على شرط مسلم (سيرة ابن كثير ٢/١٩٦)، الغرباء: ص ١٩٠.

بين قبائل العرب حتى جعل الناس يحذرون أفرادهم منه.

٣- أن الحملة الدعائية مهما كان حجمها والجهود التي بذلت فيها ومهما كان اتساعها فإنها تبقى محدودة ولن تستقطب جميع الناس حيث يبقى من لا تؤثر فيه تلك الدعايات ممن هو خارج عن إطار الإمعات.

٤- لا يستوحش من الحق لقلة السالكين وهذا الدين سيمكن في الأرض ولو بعد حين، فقد بقي النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة يطارد بمكة ويحذر منه، فلم يتطرق إلى نفسه اليأس من الانتصار، وجاء نصر الله مسوقا إليه من أهل المدينة، فالاضطهاد والملاحقة لا تثني الداعي عن دعوته، ولا تمنع من استجابة الناس له.

٥- التفكير في إخراج الدعوة من الحصار الذي يضربه عليها أعداؤها وفك الخناق عنها، فلقد كان ذلك هو شغل الأنصار الشاغل وهمهم الذي ينامون عليه ويصحون معه، مع الشعور بالمسؤولية وإن لم يطلب منهم ذلك، حيث أن حجر الداعية ومنعه والحظر عليه مضرة بالمدعوين أكثر من الداعي. لذا قالوا: « حتى متى نترك رسول الله... » .

الهجرة إلى المدينة

وبعد بيعة العقبة بدأت طلائع المهاجرين تتوجه إلى المدينة أخرج البخاري أن رسول اللّه ﷺ قال: قد أريت دار هجرتكم رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول اللّه ﷺ ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة...

أخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: « أول من قدم علينا من أصحاب رسول اللّه ﷺ : مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرآننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب رسول اللّه ﷺ ».

قال البخاري عن عائشة: وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة، فقال له رسول اللّه ﷺ : **« على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي »**. فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت قال: **« نعم »**. فحبس أبو بكر نفسه على رسول اللّه ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السدر -وهو الخبط- أربعة أشهر.

وهنا تعرف أخي الكريم: منزلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من رسول اللّه ﷺ حيث اختاره رسول اللّه ﷺ صاحباً له من بين جميع أصحابه.

وظل رسول الله ينتظر أمر ربه بالهجرة إلى المدينة ، وقريش جاهدة في حربه والكيد له حتى ائتمروا في دار الندوة على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى جلداً فيعطونه سيفاً حاداً فيقتلون به رسول الله ﷺ فيتفرق دمه بين القبائل.

قال ابن إسحاق: « ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا له في دار الندوة -وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها- يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

فقريش تخطط للإيقاع بالدعوة ورسول الله ﷺ يخطط للنجاة بها إلى بر الأمان.

روى البخاري عن عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إلا وَهُمَا يَدِينَان الدِّينَ وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إلا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّه ﷺ طَرَفَي النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّه ﷺ مُتَقَنِّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:

فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّه مَا جَاءَ بِهِ فِي هَـذِهِ السَّاعَةِ إِلا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «نَعَمْ»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: بِالثَّمَنِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّه بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ فَلا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلامُ وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ ابْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاثِ وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّيلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا -وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ- قَدْ غَمَسَ



حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاثٍ وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي عبد الرحمن بْنُ مَالِكٍ الْمُدْلِجِيُّ وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ ابْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّه ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّه ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّه ﷺ مِنْ مَكَّةَ فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّه ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ

رَبِيعِ الأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّه ﷺ صَامِتًا فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّه ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّه ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّه ﷺ ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّه الْمَنْزِلُ» ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّه ﷺ الْغُلامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا فَقَالا: لا بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّه، فَأَبَى رَسُولُ اللَّه أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ:

هَذَا الْحِمَالُ لا حِمَالَ خَيْبَرْ ... هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وَيَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخرةْ ... فَارْحَمِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةْ

فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي.

بعض الدروس والفوائد والعظات من الهجرة:

أولاً: تقدم إسلام آل أبي بكر (لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين).

ثانياً: اهتمام أبي بكر بأهل بيته وإصلاحهم والبدء بهم قبل غيرهم.

ثالثاً: منزلة أبي بكر من النبي ﷺ وصلته الوثيقة به، ومعايشته لأمر الدعوة منذ بزوغ فجرها، فقد كان عليه الصلاة والسلام يزوره كل يوم مرتين.

رابعاً: إن تفكير أبي بكر في الخروج من مكة مهاجرا لوحده مع منزلته وأهميته للدعوة وصلته الوثيقة بالرسول ﷺ، ليكشف عن مدى الأذى والشدة التي تلحقها قريش بالمسلمين. هذا مع أن أبا بكر من الأشراف ومن الذين يجدون منعة في قومهم فكيف بالضعفاء والعبيد!!

خامساً: أن أمن الدين هو الأصل عند المسلم فإن وجد عليه خطراً دفع بلده وماله وأهله حماية لدينه، ولهذا خرج أبو بكر مهاجرا وحده تاركا كل شيء خلف ظهره يطلب الأمان لدينه ودعوته.

سادساً: بلد المسلم ووطنه هو الذي يتمكن فيه من إظهار دينه ودعوته فيه، ولهذا خرج أبو بكر على الرغم من أفضلية بلده على

سائر البلدان. وعلى المسلم أن لا يركن إلى الذل والهوان بل يعمل تفكيره في الخروج من الحصار المضروب على دينه ودعوته، ويبحث عن موطن موافق أو مسالم لها. حتى يتمكن من تحقيق عبوديته لله تعالى.

سابعاً: لقد أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة ولم يختر صاحبا له في الهجرة غير أبي بكر وفي هذا دلالة على عظم الصلة وقوة الرابطة بينه وبين الرسول ﷺ (على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي).

ثامناً: لقد تجهز أبو بكر للهجرة إلى المدينة، ولكن بعد ما عرّض له الرسول ﷺ بالصحبة جلس وتحمل الأذى والعنت والتعب من قريش طاعة لرسول الله ﷺ ورغبة في مصاحبته (فحبس أبوبكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه).

تاسعاً: مبادرة أبي بكر في الترتيب لأمر الهجرة ، وبذل المال في خدمة دعوته بدون طلب من الرسول ﷺ فقد قام مباشرة بعد تعريض الرسول ﷺ له بالصحبة بتعليف راحلتين كانتا عنده؛ إذ مثل هذا من بدهيات الهجرة فلا تحتاج إلى أمر يتلقاه من الرسول ﷺ وفي هذا بيان بأن الرسول ﷺ لم يكن يربيهم تربية العبيد تربية الخنوع وإلغاء العقل مع المتبوع.

عاشراً: مقابلة التخطيط بالتخطيط، والتنظيم بالتنظيم، والترتيب

بالترتيب، فقريش تخطط وترتب للإيقاع بالدعوة، بينما الرسول ﷺ يخطط ويرتب للنجاة بها، وهذا يوضح أن الاستسرار فيما يخدم الإسلام بما لا يتعلق به بلاغ ولا بيان ولا يترتب على إسراره كتمان للدين أو سكوت عن حق من سنة الرسول ﷺ ولا يتعارض التخطيط وأخذ الحيطة مع التوكل على اللّه تعالى لأن الأخذ بالأسباب جزء من العبادة.

أحد عشر: وإن من أعظم مظاهر التضحية في هذه الهجرة أن يغادر النبي ﷺ والمؤمنون هذا البلد الأمين الحبيب إلى قلوبهم -بل وإلى قلوب جميع المسلمين- مغادرة يعلمون أن لا استقرار لهم فيه بعدها، وهذا من أشق الأمور على النفس، ولكن رجال العقيدة يرخصون في سبيلها كل غال.

ولقد عبر النبي ﷺ عن هذا المعنى -معنى صعوبة مغادرة مكة وفراقها فراقا لا سكنى بعده- في العديد من المواقف المؤثرة.

عن عبد اللّه بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول اللّه ﷺ واقفاً على الحَزْورة فقال: « واللّه واللّه إنك لخير أرض اللّه، وأحب أرض اللّه إلى اللّه، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت »[1].

(١) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبة. الغرباء: ص ٥٩١.

اثنا عشر: تربية أبي بكر لأسرته على الأمانة وإحاطة الإسلام وحفظه وبذل ما يملكون في سبيل ذلك، وكان واثقا أتم الثقة بتربيته فقال للرسول ﷺ لما أمره بإخراج من عنده: (لا عين عليك) (إنما هم أهلك يا رسول الله).

ثلاثة عشر: الرغبة في مصاحبة أهل الخير مهما ترتب على ذلك من أخطار. قال أبو بكر للرسول ﷺ: الصحبة يا رسول الله.

أربعة عشر: منزلة الرسول ﷺ عند أبي بكر أوصلته إلى البكاء من الفرح لما أخبره بمصاحبته في الهجرة.

خمسة عشر: الرغبة في المساهمة في طريق الخير وعدم الاعتماد على الآخرين في ذلك، فالرسول ﷺ أبى أن يركب راحلة ليست له حتى اشتراها من أبي بكر بالثمن، حتى تكون هجرته بماله ونفسه رغبة في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما [١].

ستة عشر: أسرة أبي بكر تشارك بمجموعها في إنجاح خطة الهجرة النبوية.

سبعة عشر: الاستفادة من خبرات وطاقات المجتمع وتوظيفها في

---

(١) الروض الأنف ٥/٥٠٢.

وهذا يدل على أهمية المسجد ومكانته في الإسلام، وأصبح المسلمون كلما بنوا مدينة أو مصراً أول ما يبدءون بالمسجد ثم يبنون بيوتهم حوله كما فعل سعد ابن أبي وقاص ﷺ حين بنى الكوفة والبصرة.

والمسجد له مكانة عظمى ودور كبير في حياة الأمة المسلمة فاستخدم المسجد في عهد النبي ﷺ لأكثر من غرض منها:

١- إقامة الصلاة فيه، وكان الصحابة يحرصون أشد الحرص على الصلاة مع الجماعة، حتى إن الرجل منهم لا يستطيع المشي فيهادى بين رجلين حتى يأتون به المسجد، وكانوا يعتبرون المتخلف عن المسجد منافقا معلوم النفاق.

روى مسلم في صحيحه عن عبد اللّه بن مسعود قال: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللّه غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللّه شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إلا كَتَبَ اللّه لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إلا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ،

وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ (١).

وروى مسلم أيضا عن ابن مسعود قال: لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلاةِ إلا مُنَافِقٌ قَدْ عُلِمَ نِفَاقُهُ أَوْ مَرِيضٌ إِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَيَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلاةَ.

وَقَالَ: إنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى الصَّلاةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَذَّنُ فِيهِ.

و لم يكن النبي ﷺ يعذر أحداً بالتخلف عن المسجد.

فروى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ أَعْمَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَرَخَّصَ لَهُ فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ: « هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلاةِ؟ » قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: « فَأَجِبْ ».

فمع كونه ﷺ رحيم بأمته يشق عليه ما يشق عليهم رؤوف فيهم لم يرخص لهذا الأعمى في التخلف عن الصلاة في المسجد.

وقد ورد في بعض روايات الحديث أنه كبير وبعيد الدار عن المسجد.

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه .

بل إن الرسول ﷺ هم بتحريق أناس لم يشهدوا الصلاة في المسجد كما في صحيح البخاري عن أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «لَيسَ صَلاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعِشَاء وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ الْمُؤَذِّنَ فَيُقِيمَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً يَؤُمُّ النَّاسَ ثُمَّ آخُذَ شُعَلاً مِنْ نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَى مَنْ لا يَخْرُجُ إِلَى الصَّلاةِ بَعْدُ».

وقد رتب رسول اللّه ﷺ على الصلاة في المسجد فضلاً كبيراً وأجراً عظيماً، كما في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ: «أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لا يَنْهَزُهُ إلا الصَّلاةُ لا يُرِيدُ إلا الصَّلاةَ فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إلا رُفِعَ لَهُ بهَا دَرَجَةٌ وَحُطَّ عَنْهُ بهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلاةِ مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ وَالْمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ يَقُولُونَ: اللَّهمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ».

٢- مدرسة وجامعة للتعليم، فكان رسول اللّه ﷺ يعلم الناس ويجلسوا إليه في المسجد فيتعلموا منه أصول الدين وفروعه، وكان الواحد منهم إذا شغله شاغل عن حضور المسجد ذلك اليوم أوصى غيره يأتيه بما يتعلمه من رسول اللّه ﷺ.

وربما استفيد من المسجد في الأمور التالية:

١- إيواء الضعفاء والفقراء والعزاب.

٢- إنشاد الشعر في نصر الدعوة.

٣- مكان لاعتقال الأسرى حتى يشاهدوا المسلمين فيتأثروا بهم.

٤- مكان لعلاج المرضى (مثل خيمة رفيدة لمعالجة سعد بن معاذ).

٥- استقبال الرسل والسفراء.

٦- عقد ألوية الجهاد.

٧- لقاء المسلمين بأميرهم وقائدهم[١].

ولما اهتم المسلمون بشكل المساجد وزخرفتها فرغوها من محتواها ومقاصدها ، وأصبحت مكانا لأداء الصلاة ثم يقفل حتى عن حلق العلم والتعليم.

وهذا مصداق قوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد »[٢].

وفي الحديث الآخر: نهى رسول اللّه ﷺ أن يتباهى الناس في المساجد[٣].

---

(١) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٧٩٢.

(٢) رواه البخاري وأبو داود وابن ماجة عن أنس.

(٣) رواه ابن حبان.

وعن أن عباس مرفوعاً: ما أمرت بتشييد المساجد.

ثم قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى[١].

ثانياً: المؤاخاة:

لما هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة وقد تركوا ديارهم وأموالهم وهربوا إلى الله بأبدانهم، تنافس الأنصار رضي الله عنهم في إيواء إخوانهم المهاجرين حتى أصبح إسكانهم بالقرعة فهذه امرأة من الأنصار ممن بايعت رسول الله ﷺ تحكي لنا قصة في ذلك: روى البخاري عن أم العلاء قَالَتْ: طَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُون فِي السُّكْنَى حِينَ اقْتَرَعَتِ الأَنْصَارُ عَلَى سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ فَاشْتَكَى فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّى تُوُفِّيَ....

بل طلبوا من الرسول ﷺ أن يقسم بينهم وبين إخوانهم من المهاجرين نخيلهم فقد روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَتِ الأَنْصَارُ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ النَّخْلَ قَالَ: لا، قَالَ: يَكْفُونَنَا الْمَئُونَةَ وَيُشْرِكُونَنَا فِي التَّمْرِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

وروى الإمام أحمد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَتَبَ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ أَنْ يَعْقِلُوا مَعَاقِلَهُمْ وَأَنْ يَفْدُوا عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالإِصْلاحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان.

ثم إن الرسول ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار فكانت هذه الآصرة أقوى من آصرة القبيلة والنسب حتى وصل بهم الحال إلى التوارث بينهم كما روى البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا: ﴿ **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ** ﴾ قَالَ: وَرَثَةً، ﴿ **وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ قَالَ: كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرُ الأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ لِلأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ**﴾ نَسَخَتْ ثُمَّ قَالَ: ﴿**وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ إِلا النَّصْرَ وَالرِّفَادَةَ وَالنَّصِيحَةَ وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ وَيُوصِي لَهُ.

وقد ضرب الأنصار أروع المثل في إكرام إخوانهم المهاجرين بل في إيثارهم على أنفسهم كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِيْنَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّوْنَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُوْنَ فِي صُدُوْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوْتُوا وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾.

ولما فتحت البحرين أراد رسول اللّه ﷺ أن يعوض الأنصار بعض ما صرفوه على إخوانهم المهاجرين، يقول أنس بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الأَنْصَارَ إِلَى أَنْ يُقْطِعَ لَهُمُ الْبَحْرَيْنِ فَقَالُوا: لا إِلا أَنْ تُقْطِعَ لإِخْوَانِنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِثْلَهَا، قَالَ: « إِمَّا لا فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرَةٌ »[1].

---

(١) رواه البخاري.

ويحسن أن نسوق نموذجاً واحداً من نماذج المؤاخاة الرائعة:

روى البخاري أنَّ عبد الرحمنِ بْنُ عَوْفٍ قال: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّه ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالاً فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عبد الرحمن: لا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوق فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عبد الرحمنِ فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عبد الرحمنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**تَزَوَّجْتَ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**وَمَنْ؟**» قَالَ: امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: «**كَمْ سُقْتَ؟**» قَالَ: زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**».

وقد ذابت العنصرية والقبلية في الأخوة الإيمانية، وأصبح التفاضل على أساس ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه أَتْقَاكُمْ** ﴾.

ولقد أكد النبي ﷺ في غير موضع أهمية الأخوة بين المسلمين ووجوب الترابط بينهم، ونهى عن الشحناء والبغضاء، والشقاق والخلاف والفرقة:

فشبههم مرة بالبنيان في قوة ترابطه وتماسكه.

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّه ﷺ: « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » وشبك بين أصابعه.

وشبههم بالجسد الواحد في دقة الإحساس وسرعة المواساة.

روى البخاري ومسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: **« مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى »**.

ورغب بالقيام بحاجة المسلم ومساعدته ونصحه وإعانته في جميع أحواله:

روى مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: **« مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّه عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّه عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّه فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّه فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ... »**.

بل إنه ساواه بالنفس في محبة الخير وكره الشر:

روى البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **« لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »**.

وحذر من جميع الخصال التي توجب الفرقة والبغضاء

والتباعد بين المسلمين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلا تَحَسَّسُوا، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّه إِخْوَانًا»[1].

وعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّه إِخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ»[2].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّه إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[3].

وأصبحت الآيات القرآنية تنزل على رسول اللّه ﷺ محذرة من الفرقة والخلاف والشقاق وآمرة بالاجتماع والإئتلاف والترابط على حبل اللّه المتين وصراطه المستقيم.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيْعَاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾، وقال ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيَعَاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وقال ﴿وَلا تَكُوْنُوا كَالَّذِيْنَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

ثالثاً: المعاهدة مع اليهود:

سكن اليهود المدينة لانتظار مبعث الرسول ﷺ الذي يجدون صفته وصفت بلده ومكان مبعثه في التوراة، وكانت اليهود تذكر ذلك كثيرا للأوس والخزرج سكان المدينة، وتقول: إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

ولهذا لما التقى رسول الله ﷺ بوفد الخزرج عند العقبة فكلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: « يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه لما عرض عليهم الإسلام » .

ولكن اليهود حسدوا العرب أن بعث فيهم رسول الله ﷺ فكذبوه وعادوه، مع معرفتهم التامة بصدقه، ووضوح علامات النبوة التي يجدونها في التوراة عليه. كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُوْنَ عَلَى الَّذِيْنَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِيْنَ﴾،

وقال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يَتَّبِعُوْنَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُوْنَهُ مَكْتُوْبَاً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ﴾.

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أقر اليهود على منازلهم وعلى ممتلكاتهم وعلى دينهم وأعمالهم، مع معرفتهم التامة به وأنه النبي الذي يجدونه عندهم، ومعرفته بهم وأنهم أهل خيانة ومكر وكذب، وإظهارهم عداوته وبغضه.

وقد تبين ذلك جليا عند أول مقدمه المدينة كما في قصة عالمهم وإمامهم وحبرهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

يقول عبد الله بن سلام: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّه الْبَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّه بْنُ سَلامٍ؟» قَالُوا: أَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّه؟» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّه مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّه إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّه وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَوَقَعُوا فِيهِ [(١)].

ومع ذلك فقد أبرم معهم رسول الله ﷺ معاهدة جاء فيها: «أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا

---

(١) رواه البخاري.

متناصر عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربي، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم نفسه وأثم، فأنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى اللّه وإلى محمد رسول اللّه ﷺ، وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، وأنه يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم..» .

فهذا الصحيفة التزم اليهود فيها بدفع قسط من المال في الحروب دفاعا عن المدينة، وأن المجرم ينال جزاءه من أي فريق كان، وأن اليهود لا يخرجون من المدينة إلا بإذن رسول اللّه ﷺ، واعتبرت المعاهدة أن المدينة حرم والحرم لا يحل انتهاكه، والمرجع الوحيد عند التحاكم هو رسول اللّه ﷺ، ومنعت الصحيفة من إجارة قريش أو نصرها.

وعلى الرغم من هذه المعاهدة ووضوح بنودها، وتحقيقها حياة آمنة مطمئنة لليهود في المدينة، إلا أن اليهود ما انفكوا عن الكيد للإسلام وأهله، ومحاولة طرح الشبه للتشكيك في نبوة الرسول ﷺ

فيستغلون بعض الحوادث للتلبيس على الناس كما في صرف القبلة وغيرها، كما يلقون الأسئلة المتعنتة على الرسول أما م الملأ ومع ذلك كان يحلم عليهم.

وهذا يعتبر نوع من فصول المقاومة للرسول ﷺ .

كما قاموا بتدبير المؤامرات والكيد للمسلمين في كل فرصة ينتهزونها، فمرة يثيرون العداوة بين المسلمين ويذكرونهم بثاراتهم الماضية حتى كاد الأوس والخزرج أن يقتتلوا، وتارة يهددون رسول اللّه ﷺ لما جمعهم في سوق بني قينقاع ورأى ما بهم من الشر والنوايا الفاسدة في نقض المعاهدة -بعد ما شرقوا بانتصار المسلمين في بدر- فوعظهم وذكرهم فقالوا له: «يَا مُحَمَّدُ لا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نفرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا لا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا» .

ودعوا على النبي ﷺ بالموت كلما لقوه في وجهه. تقول عَائِشَةَ رضي اللّه عنها: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُول اللّه ﷺ ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ : **«يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللّه يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»**، قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟ قَالَ: **«قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»**[1].

---

(١) رواه البخاري .

وقام رجل منهم يقال له: لبيد بن الأعصم بعمل السحر للنبي ﷺ . وهذا من شأن اليهود كلما أعياهم أمرٌ لجؤوا إلى السحر والشعوذة والاستعانة بالشياطين. فليس عندهم حجة يجادلون عنها، ولا رأي صحيح يناظرون عليه.

فانتصار المسلمين في بدر أفقد اليهود صوابهم فنقلوا الحرب والمقاومة من الكلام إلى ميدان الحرب الدامية:

فتحرشوا بامرأة مسلمة في سوقهم وكشفوا عن سوأتها.

ثم كان منهم التحريض لقريش على غزو المدينة ، وقامت بنوا النضير بتنظيم عملية اغتيال للنبي ﷺ ، وجندوا شعراءهم للتشبيب بنساء المسلمين والتغزل بهن.

فلما رأى رسول الله ﷺ أنهم سلكوا طريق القوة في مقاومتهم للمسلمين واستنصار الأعداء عليهم والتهديد السافر للمسلمين فأجلا من نقض العهد منهم كبني قينقاع وبني النضير بموجب المعاهدة بينهم.

فالتقى جمع من أحبارهم بزعماء قريش وشهدوا لهم أنهم أهدى سبيلاً من محمد ﷺ . قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُوْنَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوْتِ وَيَقُوْلُوْنَ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِيْنَ آمَنُوا سَبِيْلاً** ﴾.

ثم حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ وقاموا بنفير عام وتجميع لجميع قوات القبائل لغزو المدينة في السنة الخامسة، ولما حوصرت المدينة كان الواجب طبقا للمعاهدة أن ينضم يهود بني قريظة إلى جانب المسلمين للدفاع عن المدينة، ولكن الذي حدث هو العكس فقد غدروا بالمسلمين وحاولوا ضرب جيشهم من الخلف في أحرج الظروف، وفي تلك الساعات الرهيبة الحاسمة التي كان فيها مصير كل الكيان الإسلامي في خطر في جميع التقديرات العسكرية، فأصبح المسلمون بين فكي كماشة.

وأعلن اليهود مؤازرتهم للغزاة المعتدين بقصد إبادة المسلمين جميعا ووأد الإسلام. ومع ذلك فقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ وفدا يفاوضهم ويذكرهم بالعهد والعقد، فناكروهم وسبوهم وأغلظوا القول عليهم وسبوا رسول الله ﷺ أمامهم.

وقد قام يهود بني قريظة بهذه الخيانة العظمى بالرغم من أن هؤلاء اليهود -باعتراف زعيمهم كعب ابن أسد- لم يروا من النبي ﷺ وأصحابه إلا الصدق والوفاء، قاموا بتلك الخيانة وهم في حالة ارتباط مع المسلمين بموجب عهد وميثاق بأن يقاتلوا كل من حارب المدينة.

فيهود بني قريظة بالإضافة إلى ارتكابهم جريمة الخيانة العظمى يعتبرون غزاة محاربين حيث أصبحوا جزء لا يتجزأ من الجيش الغازي.

فلما اندحر الأحزاب وانسحب الجناح الوثني يجر أذيال الخيبة، بقي على المسلمين الجناح اليهودي من هذه الجيوش. الذي احتمى بالحصون فلما وصلت مقدمة رسول اللّه ﷺ إلى حصونهم سبوهم وشتموهم وشتموا رسول اللّه. فحاصرهم رسول اللّه ﷺ فلما اشتد الحصار عليهم انهارت قواهم عن المقاومة، فنزلوا على حكم حليفهم من الأوس وهو سعد بن معاذ ومع ذلك وافق رسول اللّه ﷺ على ذلك، فحكم فيهم سعد بقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية.

لقد تجمعت فلول اليهود عند إخوانهم يهود خيبر، وقاموا بتنظيم قوات مشتركة لغزو المدينة والقضاء على أهلها.

لقد كشفت الأحداث أن اليهود خلال أربع سنوات ما قبلوا تلك المعاهدة إلا مكراً وخداعاً، وأنهم اتخذوا تلك المعاهدة مع المسلمين ستارا ينفذون من خلالها مخططاتهم. وأنهم كلما سنحت لهم فرصة خالفوا تلك المعاهدة وشرعوا في تسديد ضرباتهم ضد الإسلام والمسلمين[١].

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب للأستاذ أحمد با شميل.

زواجه ﷺ بعائشة رضي الله عنها

وبعد بناء المسجد تزوج رسول اللّه ﷺ بعائشة ابنة الصديق رضي اللّه عنها وهي البكر الوحيدة من بين نسائه وأحب نسائه إليه.

ولما كان رسول اللّه ﷺ هو القدوة لهذه الأمة في حياته الخاصة والعامة، وكان الذين ينقلون لنا حياته العامة آلاف من أصحابه، فكان لزاما من توفر عدد من النساء لنقل حياته الخاصة، إذ أن المرأة الواحدة ربما تنسى، أو أن ترى أن هذا الأمر غير مهم، أو أن الذي يروي عنها ينسى.

فتزوج رسول اللّه ﷺ تسع نسوة، وكانت تلك النسوة متباينات في جميع أحوالهن حتى يتم الاقتداء به ﷺ فمنهن صاحبة الأولاد، ومنهن الكبيرة، ومنهن القريبة في النسب، ومنهن البعيدة. مع اختلافهن في الطبائع والنفسيات، وفي هذا درس عظيم للأمة في التعامل مع النساء على اختلاف حالاتهن وطبائعهن.

وقد نقلن كلهن حياته الخاصة وأصبح المسلم يعرف من حياة النبي ﷺ في بيته أكثر مما يعرف عن أبيه المعايش له.

طبيعة بيت النبوة

كان بيت النبوة يمثل البساطة في جمالها وعلوها والزهد في قمته والاكتفاء بالقليل وعدم التكلف مع القدرة والإمكان على الدنيا لو أرادها ﷺ .

فهذه أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها تصف عيش النبي ﷺ قائلة: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثَلاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ(١).

روى البخاري عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلالِ ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُول ﷺ نَارٌ، فَقُلْتُ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتِ: الأَسْوَدَان: التَّمْرُ وَالْمَاءُ إلا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُول اللَّه ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّه ﷺ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ.

وصف لنا خادمه أنس بن مالك عيش النبي ﷺ وما فيه من القلة فيقول أَنَّهُ مَشَى إِلَى رسول اللَّه ﷺ بِخُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ،

---

(١) رواه البخاري.

وَلَقَدْ رَهَنَ النَّبِيُّ ﷺ دِرْعًا لَهُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ وَأَخَذَ مِنْهُ شَعِيرًا لأَهْلِهِ ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَا أَمْسَى عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ صَاعُ بُرٍّ وَلا صَاعُ حَبٍّ وَإِنَّ عِنْدَهُ لَتِسْعَ نِسْوَةٍ[1].

بل إنه ليخرجه الجوع من بيته أحياناً كما يروي لنا مسلم عن أبي هريرة قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ »، قَالا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: « وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا ، قُومُوا »، فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَباً وَأَهْلاً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ : « أَيْنَ فُلانٌ؟ » قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ للَّه مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ : إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ، فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ.

---

(١) رواه البخاري.

وأما فراشه وأثاثه فتقول عنه عائشة: كَانَ فِـرَاشُهُ ﷺ مِنْ أَدَمٍ وَحَشْوُهُ مِنْ لِيفٍ[١].

وصف لنا عمر رضي الله عنه فراش النبي ﷺ وأثاثه فقال: دَخَلْـتُ عَلَيْـهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ لَيْس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ مُتَّكِئٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ فَسَلَّمْتُ... ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ فَوَاللَّه مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَـرَ غَيْرَ أَهَبَـةٍ ثَلاثَةٍ فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّه فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِـكَ فَـإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وُسِّـعَ عَلَيْهِمْ وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لا يَعْبُدُونَ اللَّـه، وَكَـانَ مُتَّكِئـاً فَقَـالَ: « أَوَ فِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُـمْ طَيِّبَـاتُهُمْ فِـي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه اسْتَغْفِرْ لِي[٢].

هذا مع كرمه وجوده وسخائه حتى كان أجود بالخير من الريح المرسلة، ولو كان عنده خزائن الأرض لجاد بها في ليلة يقول أبوذر: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِـي حَرَّةِ الْمَدِينَـةِ عِشَـاءً اسْتَقْبَلَنَا أُحُـدٌ فَقَالَ: « يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أُحِبُّ أَنَّ أُحُدًا لِي ذَهَبًا يَأْتِي عَلَيَّ لَيْلَةٌ أَوْ ثَـلاثٌ عِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ، إِلا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّه هَكَـذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا »، وَأَرَانَا بِيَدِهِ[٣].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

الدعوة بعد الاستقرار في المدينة

لقد بدأت مرحلة جديدة في الدعوة حين استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وقوية شوكة الإسلام، فواجه قريشاً في معركة بدر وهزمهم فقتل سبعين من علية قريش وسادتهم الذين كادوا له ووقفوا ضد الدعوة وصاحبها، ثم كانت معركة أحد فانتصر رسول الله ﷺ على قريش فيها في أول المعركة، ولما خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ هُزِموا وانتصرت قريش، ثم كانت معركة الخندق فهزم الله الأحزاب بالملائكة والريح، ثم تتابعت الغزوات والسرايا فكانت الحديبية ثم خيبر إلى أن جاء فتح مكة فدخلها رسول الله ﷺ متواضعاً لربه قد طأطأ رأسه وشنق لناقته الزمام **مع أنه** كان معه عشرة آلاف مقاتل، واستسلمت قريش وعفا عنهم ﷺ .

ووجد حول الكعبة ثلاث مئة وستين صنماً فكسرها رسول الله ﷺ جميعاً ولم يبق واحداً منها لتأليف قريش إذ لا تأليف بالشرك، مع أنه ترك الكعبة على بنائهم المبتدع على غير قواعد إبراهيم عليه السلام تأليفاً لهم، وأعلن شعار التوحيد على باب الكعبة ومن هنا قطعت شجرة الشرك وأبيدت الأصنام ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

توجيهه وتربيته وتعليمه لأصحابه

وعلى الرغم من انشغال رسول اللّه ﷺ بالجهاد ومجالدة الشرك وأهله، إلا أنه كان دائما مع أصحابه مخالطاً ومعايشاً ومربياً وموجهاً ومعلماً لهم على اختلاف أحوالهم وأعمارهم، ولا يترك موطناً من مواطن الزلل أو جانباً من جوانب الخطأ إلا وأصلحه وبينه، ولا موطناً من مواطن الخير إلا حثهم عليه ورغبهم فيه.

فكان يؤاكل أصحابه فربما حضر الطعام معه الأعرابي حديث عهد بالإسلام، أو الغلام والجارية ممن لا يعرف آداب الطعام والشراب فيأخذ ﷺ بأيديهم ويعلمهم ويربيهم.

روى أحمد عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَأُتِيَ بِطَعَامٍ فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُطْرَدُ فَذَهَبَ يَتَنَاوَلُ فَأَخَذَ ﷺ بِيَدِهِ، وَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُطْرَدُ فَأَهْوَتْ فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَمَّا أَعْيَيْتُمُوهُ جَاءَ بِالأَعْرَابِيِّ وَالْجَارِيَةِ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ إِذَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّه عَلَيْهِ، بِسْمِ اللَّه كُلُوا ».

وروى البخاري ومسلم عن عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ يَقُولُ: كُنْتُ غُلامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّه ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّه ﷺ: « يَا غُلامُ سَمِّ اللَّه، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ

مِمَّا يَلِيكَ »، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ.

وكان يبرز للناس كلهم ويبايع الوفود بنفسه ولا ينيب عنه أحدا من أصحابه، ولا يكتفي برئيس الوفد بل يبايعهم واحداً واحداً، وأحياناً يجيء الرهط من الناس ليبايعوه على الإسلام فيرى في أحدهم مظهراً من مظاهر الشرك من بقايا الجاهلية فيأبى أن يبايعه حتى يزيله.

روى الإمام أحمد عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ فَبَايَعَ تِسْعَةً وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه بَايَعْتَ تِسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا ؟ قَالَ: « إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً »، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا فَبَايَعَهُ، وَقَالَ: « مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ ».

وقد أخذ بهذا المنهج صحابته الكرام رضي اللَّه عنهم:

فقد روى أحمد عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّه قَالَتْ: كَانَ عَبْدُ اللَّه إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إِلَى الْبَابِ تَنَحْنَحَ وَبَزَقَ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَهْجُمَ مِنَّا عَلَى شَيْءٍ يَكْرَهُهُ، قَالَتْ: وَإِنَّهُ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَتَنَحْنَحَ قَالَتْ: وَعِنْدِي عَجُوزٌ تَرْقِينِي مِنَ الْحُمْرَةِ فَأَدْخَلْتُهَا تَحْتَ السَّرِيرِ فَدَخَلَ فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِي فَرَأَى فِي عُنُقِي خَيْطًا قَالَ: مَا هَذَا الْخَيْطُ ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: خَيْطٌ أُرْقِيَ لِي فِيهِ ، قَالَتْ: فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ آلَ عَبْدِ اللَّه لأَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ الرُّقَى**

وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ »، قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَقُولُ هَذَا وَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذِفُ فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى فُلانٍ الْيَهُودِيِّ يَرْقِيهَا وَكَانَ إِذَا رَقَاهَا سَكَنَتْ؟ قَالَ : إِنَّمَا ذَلِكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ كَانَ يَنْخُسُهَا بِيَدِهِ فَإِذَا رَقَيْتِهَا كَفَّ عَنْهَا إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكِ أَنْ تَقُولِي كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا** ».

وكان ﷺ يداعب أصحابه ويلاعب أطفالهم.

روى مسلم عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عُمَيْرٍ قَالَ: أَحْسِبُهُ قَالَ: كَانَ فَطِيمًا، قَالَ: فَكَانَ إِذَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَآهُ، قَالَ: « أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟ » قَالَ: فَكَانَ يَلْعَبُ بِهِ.

أما خدمه ومواليه فلم يكن يكلفهم من العمل ما لا يطيقون، ولم يبكتهم يوماً ما أو ينهرهم فضلاً من أن يضربهم، بل إنهم لم يسمعوا منه مجرد التأفف عليهم.

ففي صحيح مسلم قَالَ أَنَسٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لا أَذْهَبُ وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ

وَرَائِي قَالَ : فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: « يَا أُنَيسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ »، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ أَنَسٌ: وَاللَّه لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: هَلا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا.

وربما قام ﷺ بالتعليم وهو على حمار مردفاً لأحد أصحابه وذلك بتكرار النداء وفي هذا إثارة انتباه السامع.

يقول معاذ بن جبل: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ: « يَا مُعَاذُ »، قلت: لبيك يا رسول اللَّه وسعديك. ثم سار ساعة، فقال: « يا معاذ »، قلت: لبيك رسول اللَّه وسعديك. ثم سار ساعة فقال: « يا معاذ بن جبل »، قلت: لبيك رسول اللَّه وسعديك. قال: « هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّه عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّه؟ » قُلْتُ: اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: « فَإِنَّ حَقَّ اللَّه عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّه أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا »، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه أَفَلا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: « لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا »(١).

وقد اختار ﷺ معاذاً لينوب عنه في دعوة أهل اليمن ورسم له منهج الدعوة وبماذا يبدأ به الناس فقال له: « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا: أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّه وأن مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّه قد فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّه قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّه حِجَابٌ »[1].

وكان صحابته يرجعون إليه في كل شيء حتى في مخالفات الأطفال، فيتعامل معها ﷺ بأسلوب تربوي عظيم بما يتناسب مع سن الصغير ومرحلة الطفولة

روى أبو داود عن أَبِي رَافِعِ بْنِ عَمْرٍو الْغِفَارِيِّ قَالَ: كُنْتُ غُلامًا أَرْمِي نَخْلَ الأَنْصَارِ فَأُتِيَ بِي النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: « يَا غُلامُ لِمَ تَرْمِي النَّخْلَ؟ » قَالَ: آكُلُ، قَالَ: « فَلا تَرْمِ النَّخْلَ وَكُلْ مِمَّا يَسْقُطُ فِي أَسْفَلِهَا »، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ فَقَالَ: « اللَّهُمَّ أَشْبِعْ بَطْنَهُ ».

وفي رواية للترمذي قال: « أشبعك اللَّه وأرواك ».

يصف الصحابة رضوان اللَّه عليهم مشاركة النبي ﷺ لهم في جميع حياتهم حضرها وسفرها، وتفقده لأحوالهم الخاصة والعامة، فيقول أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه: إِنَّا وَاللَّه قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ

---

(١) البخاري ومسلم.

اللَّه ﷺ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ وَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا وَيَغْزُو مَعَنَا وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ[١].

وقد اختار ﷺ من أساليب التعليم أحسنها وأفضلها، وأوقعها في نفس المخاطب وأقربها إلى فهمه وعقله، وأشد تثبيتاً في نفسه، وأكثرها إيضاحاً: فتارة يؤكد لهم التعليم بالقسم، وتارة بالتكرار، وأخرى بالنداء، وأحيانا بإبهام الشيء لحمل السامع على استكشافه والسؤال عنه كما في حديث أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ »، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ: « الشِّرْكُ بِاللَّه، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّه إلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ »[٢].

وأحيانا يعلمهم بأسلوب الشرح والبيان والتوضيح، وترتيب النتائج على مقدماتها كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ »[٣].

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه النسائي.

وأحيانا يأتي تعليمه بالمناسبات العارضة كما في قصة الرجل الذي حلف بغير الله، كما روى سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: لا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّه فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ : « يَقُولُ مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّه فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ ».

قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وروى الإمام أحمد عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رَجُلاً يَقُولُ: وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ: لا تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللَّه فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّه فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ ».

وأحيانا يأتيه الأعرابي الجافي فيغلظ للرسول الله ﷺ القول، وربما يستطيل بيده على طبيعة الأعراب من العنف والجفاء، فيبتسم له رسول الله ﷺ، ويجيبه إلى طلبه بحسن خلق وسمو معاملة.

روى البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً قَالَ أَنَسٌ فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

وفي رواية لمسلم: ثُمَّ جَبَذَهُ إِلَيْهِ جَبْذَةً رَجَعَ نَبِيُّ اللَّه ﷺ فِي نَحْرِ الأَعْرَابِيِّ، وَفِي حَدِيثِ هَمَّامٍ: فَجَاذَبَهُ حَتَّى انْشَقَّ الْبُرْدُ وَحَتَّى بَقِيَتْ حَاشِيَتُهُ فِي عُنُقِ رَسُولِ اللَّه ﷺ.

ولكنه لما رأى رجلاً لبس سواراً من نحاس يقي به مرضاً يأخذ في العضد غضب عليه وزجره ونهره.

فعن عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَبْصَرَ عَلَى عَضُدِ رَجُلٍ حَلْقَةً -أُرَاهُ قَالَ: مِنْ صُفْرٍ- فَقَالَ: «وَيْحَكَ مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهَا لاَ تَزِيدُكَ إِلا وَهْنًا، انْبِذْهَا عَنْكَ فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»[1].

فهناك لم يغضب رسول اللّه ﷺ لنفسه، أما هنا ولما رأى مظهراً من مظاهر الشرك غضب للّه عز وجل، حيث أنه ﷺ بعث بتكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينها ودنياها [2].

وربما لحقه الأطفال فأركبهم معه على بغلته.

فعن إِيَاسٌ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَقَدْ قُدْتُ بِنَبِيِّ اللَّه ﷺ وَالْحَسَنِ

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه.

(٢) انظر: القول السديد، ص: ٣٧.

وَالْحُسَيْنِ بَغلَتَهُ الشَّهْبَاءَ حَتَّى أَدْخَلْتُهُمْ حُجْرَةَ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا قُدَّامَهُ وَهَذَا خَلْفَهُ[١].

بل ربما نزل ترك الخطبة من المنبر وحمل الأطفال ثم أتم خطبته

عَبْدُ اللَّه بْنُ بُرَيْدَةَ قَال: سَمِعْتُ أَبِي بُرَيْدَةَ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَخطُبُنَا إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنزَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: « صَدَقَ اللَّه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا »[٢].

وإذا سمع رسول اللّه ﷺ بمنكر انتدب له رجلاً من صاحبته؛ ليقوم بإزالته، فقد روى لنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ بعثه بمهمة وهي تسوية القبور بالأرض وعدم رفعها، وطمس التماثيل والصور.

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ ﷺ، أَنْ لا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي وحسنه .

تَدَعَ تِمْثَالاً إِلا طَمَسْتَهُ وَلا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلا سَوَّيْتَهُ، وفي رواية قَالَ: وَلا صُورَةً إِلا طَمَسْتَهَا.

ولم يكن رسول اللّه ﷺ يخص أحداً من أقاربه بعلم دون الناس.

ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ : سُئِلَ عَلِيٌّ أَخَصَّكُمْ رَسُولُ اللّه ﷺ بشَيْءٍ؟ فَقَالَ: مَا خَصَّنَا رَسُولُ اللّه ﷺ بشَيْءٍ لَمْ يَعُمَّ بِهِ النَّاسَ كَافَّةً إلاَّ مَا كَانَ فِي قِرَابِ سَيْفِي هَذَا، قَالَ: فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً مَكْتُوبٌ فِيهَا: « لَعَنَ اللّه مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللّه، وَلَعَنَ اللّه مَنْ سَرَقَ مَنَارَ الأَرْضِ، وَلَعَنَ اللّه مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللّه مَنْ آوَى مُحْدِثًا » .

وكان يرسل البنيات الصغيرات ليلعبن مع عائشة رضي اللّه عنها.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللّه عَنْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي فَكَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي(١).

وكان ﷺ لا ينفك عن التعليم والتوجيه في حال الصحة

---

(١) رواه البخاري.

والمرض، فقد كان بعض نسائه يقصصن عليه بعض القصص وهو في مرضه لعل ذلك من أجل تسليته.

ففي البخاري ومسلم عن عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا اشْتَكَى النَّبيُّ ﷺ ذَكَرَتْ بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا: مَارِيَةُ وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَأُمُّ حَبِيبَةَ رَضِي اللَّه عَنْهُمَا أَتَتَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ فَذَكَرَتَا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ مِنْهُمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَةَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّه».

فعلى الرغم من مرضه ﷺ استدرك على نسائه وبين ضلال أولئك النصارى حيث اتخذوا المساجد على قبور الصالحين وصوروا صوراً فيها.

وقد تعامل مع أخطاء الأعراب الجفاة بالحكمة والتأني مع الحلم والصبر عليهم والصفح عنهم، وحسن توجيههم وإرشادهم وتربيتهم، مع غاية الرحمة والرأفة بهم.

فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّه ﷺ: مَهْ! مَهْ! قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «لا تُزْرِمُوهُ (أي: لا تقطعوا عليه بولته) دَعُوهُ»، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ ثُمَّ إِنَّ

رَسُولَ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: « إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ »، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ ﷺ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ[1].

وكان لطيفاً رحيماً رقيقاً في معاملته لأصحابه وفي تعامله مع أخطائهم.

يصف لنا ذلك معاوية بن الحكم السلمي فيقول كما في صحيح مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلا ضَرَبَنِي وَلا شَتَمَنِي قَالَ: « إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ »، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالإِسْلامِ وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الْكُهَّانَ؟ قَالَ: « فَلا تَأْتِهِمْ »، قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

يَتطَيَّرُونَ؟ قَالَ: « ذَاكَ شَيْءٌ يَجدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلا يَصُدَّنَّهُمْ »، -قَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ: فَلا يَصُدَّنَّكُمْ- قَالَ: قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخطُّونَ، قَالَ: « كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ »، قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه أَفَلا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: « ائْتِنِي بِهَا »، فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: « أَيْنَ اللَّهُ؟ » قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: « مَنْ أَنَا؟ » قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّه، قَالَ: « اعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ ».

وقد أكد رسول الله ﷺ نهيه عن إتيان الكهان في موطن آخر فقال: « مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ »[1].

وقد بلغ من رأفته ورحمته أن يصعد الصبي على ظهره وهو ساجد يصلي بالناس فيطيل السجود كراهة أن يعجل الصبي.

عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ شَدَّادٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي إِحْدَى صَلاتَيِ الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا فَتَقَدَّمَ رَسُولُ

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة .

اللّه ﷺ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلاةِ فَصَلَّى فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا قَالَ أَبِي: فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّه ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّه ﷺ الصَّلاةَ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللّه إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ؟ قَالَ: « كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ »[١].

روى النسائي عَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ رَفَعَهَا.

بل إن رأفته ورحمته بالناس حملته على تخفيف الصلاة بسبب بكاء صبي مراعاة لحال أمه.

عَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ : « إِنِّي لأَدْخُلُ فِي الصَّلاةِ وَإِنِّي أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاتِي مِمَّا أَعْلَمُ لِوَجْدِ أُمِّهِ بِبُكَائِهِ »[٢].

وفي السنة التي مات بها ابن النبي ﷺ إبراهيم.

يقول الْمُغِيرَةَ ابْنَ شُعْبَةَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ

---

(١) رواه النسائي .

(٢) رواه ابن ماجه .

فَقَالَ النَّاسُ: انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَان مِنْ آيَاتِ اللَّه لا يَنْكَسِفَان لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّه وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ ».

فبدد بذلك رسول اللَّه ﷺ جميع الأوهام والخرافات المنتشرة في الجاهلية.

وكان ﷺ لا يملك عينيه من شدة الرحمة.

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ وَكَانَ ظِئْرًا لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّه ﷺ تَذْرِفَان، فَقَالَ لَهُ عبد الرحمن بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه؟ فَقَالَ: « يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ »، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ ﷺ: « إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلا نَقُولُ إِلا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ »[1].

---

(١) رواه البخاري.

وفاة رسول الله ﷺ

وفي السنة العاشرة حج ﷺ بالناس وبعد رجوعه من الحج وفي شهر ربيع الأول بدأ به المرض بأبي هو وأمي ﷺ ثم اشتد وجعه حتى انتقل إلى جوار ربه جل وعلا في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

روى البخاري أَنَّ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ يَشُكُّ عُمَرُ فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: « لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ »، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: « فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى » حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ.

قَالَ أَبُو عَبْد اللَّه: الْعُلْبَةُ مِنَ الْخَشَبِ وَالرَّكْوَةُ مِنَ الأَدَمِ.

حينما يحس الإنسان بقرب أجله يهتم بالوصية في أكثر الأشياء أهمية عنده والتي يتوقع أو يخاف إهمالها ممن بعده، وكذلك نبي الرحمة ﷺ الذي يشق عليه ما يشق على أمته، والحريص على هدايتهم الرحيم الرءوف بهم كما وصفه ربه، اهتم في أيامه الأخيرة من حياته بتكرار الوصية بأمور عظيمة.

وقد أمر رسول الله ﷺ بالوصية فعمل أصحابه بها فكان كل واحد منهم لا يبيت إلا ووصيته عند رأسه، وقد أوصى ﷺ عند موته بوصايا عظيمة وأشياء مهمة كان يخشاها ﷺ على أمته، وقد وقع ما كان يخشاه ﷺ فقد تهاون الناس بوصيته، وبما كان نهى عنه حتى انتشر ذلك بين الناس وأصبح بعض طلبة العلم لا ينكرونها بسبب كثرتها وفشوها، فإليك أخير الكريم طائفة من وصاياه فارغ لها سمعك رعاك الله وحفظك، وافتح لها قلبك فتح الله عليك أبواب الخير.

أولاً: نهى عن اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد على القبور، ونظرا لخطر هذا الأمر نبه عليه ﷺ وهو في حالة الموت، ولا يتمسك شخص بأن قبره وقبر صاحبيه في المسجد فإن هذا ما فعله ﷺ، ولا خلفاؤه الراشدون الذي قال ﷺ عنهم: **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين** ولا يلتفت إلى عمل الناس مع نهيه ﷺ فهو الواجب طاعته واتباعه.

استمع أخي الكريم إلى أمنا عائشة وهي تحدثك عن نبيك في حال وفاته فتقول: كما روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: « **لَعَنَ اللَّه الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا** »، قَالَتْ: وَلَوْلاَ ذَلِكَ لأَبْرَزُوا قَبْرَهُ غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

ولاحظ أخي الفاضل أن رسول اللَّه ﷺ قال هذا الأمر في حال مرضه وأمام جمع الناس فيروي لنا الإمام مسلم عن جندب قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: « **إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّه أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّه تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلا فَلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ** ».

ثانياً: بين للناس منزلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأنه لا يوازيه أحد من صحابته في منزلته كائنا من كان، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبٌ رَأْسَهُ بِخِرْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّه وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: « **إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ** »[1].

وروى البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَاشْتَدَّ

---

(١) رواه البخاري .

مَرَضُهُ فَقَالَ: « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ »، قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، قَالَ: « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ »، فَعَادَتْ فَقَالَ: « مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ » فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَصَلَّى بِالنَّاسِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وروى البخاري عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ وَكَانَ تَبِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَخَدَمَهُ وَصَحِبَهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاةِ فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ ﷺ خَارِجٌ إِلَى الصَّلاةِ فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَتِمُّوا صَلاتَكُمْ، وَأَرْخَى السِّتْرَ فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ.

ثالثاً: أوصى بالصلاة، ولعظم شأن الصلاة تجد أخي الكريم حبيبك ﷺ يأمرك بها حتى في حال غرغرة الروح، في الوقت الذي ينسى فيها الإنسان نفسه من شدة سكرات الموت فإن نبينا ﷺ في هذه الساعة العظيمة الحرجة يؤكد شأن الصلاة ومنزلتها وعظم شأنها.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ: « **الصَّلاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** » فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى مَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ [١].

ولهذا رتب على الصلاة ما لم يرتب على غيرها فجعلت هي الفاصل بين الكفر والإسلام، فقد قال ﷺ: « **بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة** ». رواه مسلم عن جابر، وقال أيضا: « **العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر** »[٢].

وقال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة [٣].

ولكي تتصور أخي الكريم الحكمة من هذه الوصية تأمل في حال المسلمين كم نسبة الذين يصلون منهم، وكم نسبة الذين يحافظون على الصلاة في وقتها من بين المصلين؟ وكم نسبة الذين يؤدونها جماعة في المساجد من هؤلاء؟ وكم نسبة الذين يحافظون على آدابها وخشوعها !؟.

رابعاً: النهي عن الاختلاف والتشاجر بين المسلمين فقد أمر

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٣) رواه الترمذي.

جريرا أن يستنصت الناس ثم قال رسول اللّه ﷺ : « **لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض** »[1].

ولتصور الحكمة من هذه الوصية تأمل تاريخ المسلمين وحاضرهم وإلى أي مدى خالفوا هذه الوصية.



---

(١) رواه البخاري ومسلم.

فهرس



تقوم وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وتسهم في نشر العلم الشرعي بالوسائل المتعددة، ومنها الكتاب ..، وتسعى من خلال نشر الكتاب إلى تحقيق العديد من الأهداف، ومنها :

- التعريف بالإسلام وأحكامه، وإبراز محاسنه، والتوكيد على سماحته، وتصحيح المفاهيم الخاطئة عنه .
- نشر العلم المؤصل، المبني على الكتاب والسنّة وأقوال الأئمة.
- الدعوة إلى الترابط والتآلف بين أبناء الأمة الإسلامية وتجنب التفرق والإختلاف .
- الدعوة إلى الوسطية والإعتدال ونبذ الغلو والتطرف.
- المعالجة العلمية الرشيدة لأفكار الغلو والإرهاب .

وكالة الوزارة لشؤون المطبوعات والبحث العلمي
ص.ب ٦١٨٤٣ الرياض ١١٥٧٥ - هاتف : ٤٧٣٦٩٩٩ فاكس : ٤٧٣٧٩٩٩
www.al-islam.com www.qurancomplex.org